منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

رزان نعيم المغربي

# نساء الريح

رواية



# نساء الريح

رواية

رزان نعيم المغربي








**ISBN** 978-614-02-0102-6

**الطبعة الأولى**

1431هـ ـ 2010 م



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com




أبوظبي هاتف: (+971–2) 6345404 فاكس: (+971–2) 6345407
دبي هاتف: (+971–4) 2651623 فاكس: (+971–4) 2653661
بيروت هاتف: (+961–1) 786233 فاكس: (+961–1) 786230

# الإهداء

**إلى ربيعة حيثما كانت تقف الآن**

**إذ لولا غيابها لما تمكنت من الكذب**

**وكتابة الرواية**

# طرابلس مزاج متجدد

طرابلس مدينة متقلبة المزاج لا يمكن التنبؤ بأهوائها، تهوى اللهو والترف، فتسمح لمزيد من المنعطفات وتقاطعات الشوارع أن تكون ركناً صغيراً لتقديم القهوة سريعة التحضير، فتقدم كل صباح نوعاً جديداً من طرائق تحضيرها، تطلق عليها تسميات تخصها، وتوقعك في حيرة، فإذا تعودت على تناول نوع منها فلن تجد إذا ما سافرت خارجها ما يرضي متعة تذوقك لتلك القهوة السريعة المعدة في مقاهيها.

تلك المنعطفات تتكاثر، مقهى يستنسخ مقهى آخر، هذا الاستنساخ لايخص المقاهي والمطاعم بل حتى محال بيع الأحذية، فترى شارعاً بدأ بمحل لبيع الأحذية، بعد شهر تنبت عشرة محال تبيع نفس البضاعة وبنفس الأسعار، يحدث ذلك مع محلات تخصصت ببيع الملابس بأسعار مخفضة، أطلق مبدعها الأول عليها اسم (فرصة) فأصبحت علامة مسجلة وتم استنساخ مئات المحلات منها.

في طرابلس تغيرت عادات وطقوس الأعراس، استحدثت صالات الأفراح في كل مكان، وصارت من ضمن التقاليد الجديدة.

إذن طرابلس لاتميل إلى اللهو فقط، بل تهوى المنافسة، إذ يكفي أن ينجح أحدهم في تسويق سلعة ما في شارع ما حتى يسمى الشارع باسمه من «فرصة» إلى «مفاجأة» إلى «المميز» وهكذا...

مع طرابلس لاتوجد ضمانات دائمة لاستمرار ذاكرة دائمة ممنوعة من الانتهاك،

فهي دائمة الحركة، لا يمكن أن تقف الأمكنة مشلولة بل تحرك الساكن والراكد بضلال مفاجيء يأتي على غفلة، وأي صباح قادم بجديد ينهي كل العادات القديمة، ويقدم بدائل أكثر حداثة وجدة.

# عودة الذاكرة

لم أكن أتوقع العثور على حكاية، كنت أبحث عنها داخل تجربتي، أحث ذاكرتي علي المضي نحو الماضي أو حتى القريب من الحاضر، معتقدة أن ذاكرتي سوف تعتقل نصاً ما يفجر تلك الرواية، ولكن المفاجأة كانت مختبئة داخل شريط مسجل، وها أنذا أفرغ هذه الذاكرة المعدنية اللعينة، وأضيف إليها ما لم تدركه بهيجة وهي تسجل تلك اللحظات الأولى التي جمعتني بها في مصادفة غريبة.

أنظر إلى آلة التسجيل التي عادت بعد شهور طويلة قاربت التسعة، وأبتسم من تلك اللحظة التي خيلّ إلي فيها أنني قادرة علي كتابة رواية، وأنا التي لم أكتب أكثر من خواطر نثرية وبضع قصائد يسمونها نثراً أيضاً.

آلة التسجيل تلك، أو الذاكرة التي حملتها بهيجة في رحلتها كان يمكن ألا تعود، كان يمكن أن تغرق في مياه البحر المالحة أثناء سباحتها، لكن حرصها كما تقول في رسالتها إليّ جاء من محبتها أن تكون داخل الرواية التي سأكتبها، وهاأنذا أشرف على وضع جنيني ولم أنجح بعد في ملء الفراغات.

بهيجة، التي التقى بها زوجي قبل أكثر من شهرين في أحد الفنادق في مدينة فرنسية، حيث تعمل في تنظيف الغرف، كانت سعيدة جداً بخبر حملي، واحتالت على زوجي حتى يحمل معه هدية لي.

في صباح اليوم الثاني جاءته تحمل كيساً ملأته بألبسة الأطفال، وبين ثناياها خبأت المسجل الصغيرملفوفاً بورق مقاوم للماء.

مع كل تلك المساعدة لم أتمكن من إنجاز الرواية، حملت الأقراص المدمجة التي أفرغت عليها حديث بهيجة، وبعض أوراق كتبتها يسرى، ومذكرة صغيرة فيها بعض مما كتبت، وضعتها في مغلف كبير قدمته إلى كاتبة سبق أن أصدرت رواية، عسى أن تنجح فيما لم أقدر عليه.

# بهيجة!

حدث هذا في إحدى ليالي الصيف من العام الماضي.

بعد تردد كبير واضح قرأته في ملامحه، منذ أن رآها تجلس منتظرة مثل غيرها اكتمال هذا الرهط، الذي لا يمكن أن يتوقع أحد منهم من سيكون التالي، ومن يرافقه في رحلة مجهولة، كانت دهشته بوجودها أكبر من اهتمامها بأن يكون معها حيث لم تتوقع...

بعد تردد سألها باختصار شديد وبلهجته المصرية

- أمال بنتك فين؟

أجابت بسرعة وكأنها تتوقع السؤال.

- «ماكنتش بنتي»،

ردت بلهجة مغربية، لم يصعب عليه فكُّ رموزها؛ لأن رضا، بواب العمارة القادم من منطقة الفيوم بمصر عمل في أغلب أحياء العمارات وصادق معظم المصريين الذين عملوا حراس مبان سكنية وتعرف على الكثير من العرب الذين يقطنون طرابلس ويعملون فيها، ولطالما نشبت بينهم معارك حول الوجود والسيطرة على حيازة أكبر عدد من الزبائن، كان على كل واحد منهم أن يمتلك حساسية عالية لتمكنه من التمييز واستقطاب الشخص المقتدر، تبدأ من نوع السيارة التي يقودها، إلى التلصص على مدخل البيت حالما يفتح صاحبه الباب ويقوم بإدخال الأكياس، إلى أبعد مايمكن وصوله.

في الغالب لايتجاوز مساحة المدخل إذا كان من طلب الخدمة رجل البيت، أما النساء فكن يسمحن بفرصة أكبر إذا لم يكن الزوج موجوداً؛ بحجة أنه يمكن لاسطوانة الغاز أن تكسر ظهرها إذا حملتها، أو تتسخ سجادة الممر لو سحبتها عليها.

يقوم رضا، بكل هذه المهمات برضا بالغ؛ لأن الإكرامية التي تدفع دائما خارج نطاق راتبه الشهري!

رضا، يحاول استعادة صور ذاكرته الحزينة، التي أدت لوجوده هنا... كانت (بهيجة) المغربية تتأمل بسكون وادع بعضاً من المنتظرين والحالمين بعالم جديد، وطن آخر يلتصقون بطينه وشواطئه، يعملون حمالين على ظهر السفن والمراكب على مرافئه، والحلم لاشكل له سوى أن العملة هي اليورو، حتى هذه اللحظة لم تكن تعرف شكل المركب الذي سينقلهم إلى وطنهم المفترض، كبير أم صغير؟ قوي متين، أم ضعيف متهالك؟

كان عليها أن تسعى طويلاً لتجمع المبلغ، وأن تبحث عن تاجر تبيعه روحها مقابل أربعة آلاف يورو ليقبل بسفرها على مركبه مع مجموعة من الأفارقة والعرب المهاجرين، أما العراقية أم فرح، التي خاضت التجربة من قبل فقد فشلت زرعت في داخلها بذرة الخوف والشك من النصابين السماسرة في هذا

المجال.
كلما انزاحت الشمس وراء الأفق درجة كان عدد المهاجرين يزداد واحداً إثر آخر، وعندما استمعت إلى أذان المغرب ازدحمت الغرفة المستطيلة التي حشروا فيها، وأخذت تتصاعد روائح أجسادهم مختلطة بالأنفاس الثقيلة، نظر إليها رضا الجالس قبالتها، أشار بيده، فهمت أن عليها الخروج، انسحبت إلى خارج الدار التي لم تكن سوى (شاليه) متواضع بني على عجل، في الداخل كانت الحجرة المستطيلة بأثاثها البسيط ولم يكن سوى سرير مهترىء وثلاجة تسكب المياه من أنبوبة في أعلاها، وإلى جانبها عدة كؤوس بلاستيكية عددها لا يكفي كل الموجودين؛ لهذا لم يكن من يشرب منها يتجرأ على رميها، داخل الغرفة باب مفتوح على مطبخ صغير فيه عدد من الكراسي جلست عليها بضع نساء مع أطفالهن يقابله باب الحمام وبدا الازدحام كبيراً، من أجل الدخول إليه كان على بهيجة، أن تتعلم الكثير من تجاربها في الحياة من خلال خدمتها في بيوت راقية وأخرى متوسطة أو حتى أقل من عادية، مهمتها الأولى تنحصر في المحافظة على النظافة، بل تنظيف قذارة الآخرين، لهذا حملت في كيسها الصغير زجاجة مياه تخصها وعمدت إلى عدم الإكثار من شرب المياه حتى لا تضطر إلى دخول «حمام عمومي» في مكان مجهول.
في الخارج كانت الشرفة منخفضة السور قريبة جداً من شاطيء البحر، وضعت فيها بضع كراس فارغة.
في الواقع كأن رأسها فارغا تماماً، لم تعد ذاكرتها تحتمل أكثر من ذلك، ماتراه تكاد تنساه في ذات اللحظة لكنها على الأقل تذكرت الكاتبة، فتحسست جيب جلابيتها، لمست أسطوانة معدنية صغيرة سحبتها بسرعة وتأملتها، كانت تحتوي زراً ينسحب نحو الأعلى والأسفل، قالت عنه الكاتبة: إنه مسجل صغير، لكنه يتحمل الكثير...طلبت منها أن تتحدث فيه، ترصد كل ماتراه، بل حتى ما تشعر به مهما بدا لها عادياً تافهاً وسخيفاً.
حدثت نفسها قائلة: «هؤلاء الكتاب مجانين فعلاً، على الرغم مما كان يبدو عليها من عقل ورزانة، عندما التقتها أول مرة في بيت هدى، حسبتها امرأة بسيطة لاتجيد الحديث، وحين سمعتها تتحدث إلى صاحبة البيت لم تفهم ما يدور بينهما من كلام، إلا أنها تمتلك قدرة كبيرة على المجاملة والملاطفة... لهذا لم تمانع أبداً في تقديم العون والخدمة لها في بيتها، بعد أن أصبحت أقرب إلى يسرى، مستجيبة لطلبها.
صحيح أن أملها خاب إذ رأت هذا البيت الفوضوي الصغير الذي لا يمكن لها أن تبدأ بترتيب أغراضه من مكان محدد، إلا أن الكاتبة سهلت الأمر عليها.. قالت لها:
- كل الأوراق المبعثرة على الطاولة والمكتبة لا تقتربي منها، أما الكتب المتناثرة بين سقف المكتبة ومحاذاتها وعلى الأرض أيضاً فلا تلمسيها ولا تحاولي تنظيفها.

- ماذا أفعل سيدتي إذاً؟
- نظفي المطبخ وغرفة النوم.
وفجأة وكأنها تذكرت شيئاً مهماً أردفت قائلة:
- في غرفة النوم ستجدين كراسات وكتباً بجانب السرير، نظفي الغبار حولها فقط!
لم تكن بهيجة تخشى على نفسها عدم الدقة، فقد عملت في قصور وبيوت كبيرة تخص أثرياء، وكان سكانها يطلبون منها توخي الحذر عندما تلمع كؤوس الكريستال أو النجف، والحرص على جمع أقراط ثمينة ضائعة تحت الوسائد والأسرّة.
شعرت أن ذاكرتها البعيدة تعود تدريجياً. حاولت أن تنهرها. لاتريدها أن تتدفق هنا. أمامها ليل طويل ستكون فيه على متن المركب، وسوف تتحدث إلى نفسها بصوت عال نسبياً،
ستتجرأ وتسجل كل ما تفكر به؛ هذه الأنبوبة المستطيلة؛ الذاكرة المعدنية التي حملتها معها، هدية الكاتبة التي أكدت كثيراً أنها ستلتقي بها هناك على الشاطيء الثاني يوماً ما، بعد أن تستقر أمورها، ووضعت في يدها مبلغاً لابأس به عوناً على السفر على الرغم من تواضعه، وكان أقل مساعدة مالية تلقتها، وبسبب تكتمها على الهجرة كان من الصعب أن تصارح يسرا، أو غيرها وتطلب مساعدة، أما الشقرا، المرأة التي اعتقدت طويلا أنها مشغولة بنفسها فقط، فقدمت لها الكثير حتى مكنتها من غايتها.
جميع من عرفتهم وعملت في بيوتهم كان بإمكان كل واحد منهم أن يعطيها الأربعة آلاف دفعة واحدة، أما «الكاتبة» فقد ضحت بمبلغ متواضع، وشجعتها وهي تمسك بهذا « المسجل الصغير»:
- لاتبالي بالآخرين، أمسكيه هكذا، قربيه من فمك وتحدثي بصوت هامس، لايهم ماذا تقولين ولا الطريقة التي تتكلمين بها لأنني سأعيد ترتيب الكلمات، فأنا أفهم لهجتك المغربية جيداً.
قاطعتها:
- ربما أتكلم عنك و...
- «بالتأكيد تحدثي عني.. لاتخجلى، ولا تجامليني.. ماذا تظنين بي»؟
- « حتى أنى بنولي كاتبة»!
ضحكتا معاً، وكانت إشارة إلى ماسمعته من الشقرا، عندما أصبحت يسرا صديقة مقربة من الكاتبة، وشعرت بالغيرة فقالت: يسرا تريد أن تصبح كاااتبة..
قالتها بلهجة ملحنة طرية، لقد أحبت كل واحدة منهن أن تكون كاتبة، إلا أن أياً منهن لم تحب الكاتبة.. هذا ما اعتقدته بهيجة دائماً.
***

الشمس تنسحب رويداً رويداً إلى ماوراء خط الأفق؛ ارتفعت الأصوات وبكاء الأطفال الذين ملوا الانتظار، أصوات ولهجات غريبة متداخلة في الغرفة المستطيلة، الكراسي الفارغة على الشرفة شغلت وازداد عددها، كان صاحب المركب يدور بينهم، يشرف على ماحملوه من أغراض معهم، وضع ميزاناً صغيراً وطلب من كل واحد الوقوف عليه مع كيسه الذي يحمله، بينما يحمل هو في يده ورقة وقلماً ويسجل الأسماء والأوزان.. غالبية الركاب من الرجال؛ في أقصى الشرفة جلست شابة ترتدي جلابية مغربية، تضع مساحيق وألواناً مختلفة على وجهها، تدخن السجائر بشراهة شديدة، وترتشف القهوة من فنجان ورقي أحضرته معها لم تنتبه بهيجة، إلى حضورها إلا بعد أن لفت رضا انتباهها واقترب منها هامساً:

- «بهيكة».. نطق اسمها بالكاف مشيراً إلى الشابة.

- أليست هذه؟

كان الضوء شحيحاً لكنها ميزت قسمات وجهها الجميلة. هزت برأسها موافقة، فهمت إلى مايرمي رضا، ورمقته بنظرة تحمل مغزى لم يلحظها أو يدركها أحد.

(ممن شاركهم الجلوس بالشرفة- بعدما شغلهم وزن انفسهم، وعد نقودهم وتسليمها، كانت الدفعة الثانية والأخيرة قبل الصعود إلى المركب.؟؟)

* * *

ها هو شاطيء مدينة زوارة، يمتد واسعاً أمامهم، تبدو السماء التي اسودت خالية من الغيوم والبحر ساكناً تماماً. من هنا وعلى امتداد مئات الأمتار تتسلل أغلب القوارب والمراكب حاملة معها المهاجرين إلى أقرب جزيرة إيطالية.

تعرف بهيجة أن ليبيا تمتد شواطئها شمالاً بما يقارب « ألفي كيلومتر»، ولأنه بهذا الاتساع ولاتوجد به منشآت سياحية كثيرة أو ازدحام سكاني _مما جعل مهمة حمايته شبه مستحيلة_ كان الهروب من شواطيء تونس أو المغرب أصعب وأقل بكثير مما يحدث هنا، على الرغم من قربهما من الشواطيء الأوربية، وسمعت أن بحر (زوارة) يتم اصطياد أفضل أنواع السمك منه، في ليبيا يقال إن لكل مدينة تقع على الساحل بحرها، بحر صبراته غرب طرابلس يشتهر بكثرة المصطافين ووجود القرى والفنادق السياحية فيه، آخرون يفضلون (بحر مصراته) الواقعة شرق طرابلس، أحياناً يحتد النقاش حولهما عندما تجتمع النساء في بيت هدى، ويتكلمن عن البحر الأجمل وكأن لكل واحدة منهن بحرها المختلف، والحقيقة أن معظم النساء تستعرض فقط تجربتها الخاصة ولم يكن بحر مصراته أو صبراته الأهم، بل المصيف الذي حجزت فيه وعائلتها، والمبلغ الذي رصدته لتقيم فترة الصيف هناك.

بالنسبة إليها كانت تستمتع كثيراً، عندما تذهب إلى (المصيف العائلي) في قلب العاصمة طرابلس والذي لايبعد إلا بضع خطوات عن محطة الحافلات والعمارة وحتى مكان سكنها في المدينة القديمة، وآخر مرة ذهبت إليه كانت

مع أم فرح، تذكر كم من مرة قضت فيه أوقاتاً جميلة، ورافقت يسرا والشقرا، لم تكن أية واحدة منهن تعاملها على أنها خادمة؛ لأنها تمكنت من اختراق عالمهن ببساطة وأصبحت جزءاً منه، وقدمت لهن أكثر من تنظيف المنزل والمحافظة عليه.

مع (نساء العمارة) أقامت جسراً من المودة، فيما فشلت مع زوجة السيد عبد المجيد، في الاستمرار بتلك الصداقة التي انقطعت فجأة.

* * *

علت من جديد أصوات الجالسين وضجيجهم داخل (الشاليه)، سقط قرص الشمس الملتهب وراء خط الأفق الأزرق، أتى المسؤول عن سفرهم، أمرهم بالصمت حتى لايكتشف تجمعهم من قبل دورية شرطة خفر السواحل، أو يخبر عنهم أحد المارين قريبا من المكان.. قال لهم:

- إذا كنتم تريدون السفر بسلام عليكم بالتزام الهدوء؛ لأن التفتيش عن المهاجرين يكثر هنا في هذه المنطقة.

ثم استدار وعم الصمت إلى وقت قصير، فسألت بهيجة نفسها: وماذا عليهم أن يفعلوا إذا لم يمضوا الوقت في الكلام ليخففوا من وطأة الانتظار؟ هي أيضاً عليها أن تأخذ في حسبانها من جديد تحذيرأم فرح لها، فتلك التجربة التي جعلتها تنجو مع زوجها وابنتها علمتها درساً في الحياة لن تنساه، وبالرغم من محاولاتها ثنيها عن هذه المقامرة كما أسمتها إلا أنها رأت أم فرح مجرد امرأة عبيطة تصدق كل مايقال لها.. فبهيجة لم ترتكب خطأ الاتفاق مع «عصابة النساء» السماسرة، بل فضلت أن يكون المهرب رجلاً وألا يكون هناك وسطاء بينهما.

تذكرت كيف التقت أم فرح، عندما كانت في شقة الكاتبة تصبغ لها شعرها، واستغلت بهيجة دخول صاحبة البيت إلى الحمام فأخذت تسألها عن هجرة لم تكتمل وتتجنب الحديث عنها للآخرين، لكن بهيجة القادرة على سحب لسان أي امرأة فاجأتها:

- نبغي نهاجر من الأخير؟

صعقت أم فرح وبدا الذعر واضحا على ملامح وجهها:

- لا يمكن، هذه مقامرة، أنت تبيعين روحك لاثنتين من النساء اللواتي يعملن بالنصب، هل دفعت لهما المال؟ هل قابلت الرئيسة أم الوسيطة؟

قاطعتها بهيجة قائلة:

- أبداً لم أقابل أحداً، فقط طلبت من رجل مغربي هنا يعرف أحد المهربين، وسأتفق معه قريباً عندما أجمع المبلغ.

(لم تكن تريد أن تفصح عن هوية من يساعدها؛ لأن هذه الاتفاقات تجري بسرية تامة).

تنهدت (أم فرح) واقتربت منها قائلة:

- عندما تنتهين من عملك سنتقابل في المصيف العائلي المقابل للعمارة؛ في تلك اللحظة خرجت (الكاتبة) من باب الحمام وهي تلف رأسها بالمنشفة، وذهبت أم فرح لتجفف لها شعرها وتستكمل بهيجة عملها.

كان الوقت عصراً حين انتهت من تنظيف البيت، وشمس الصيف قد خفت حدتها، والمكان الملائم قريب ولايبعد إلا مسافة خطوات قصيرة تقطعها مشياً على الأقدام.

# أحلام مذبوحة

أم فرح، امرأة عراقية تجاوزت سن الخمسين بعام أو اثنين، التقيتها في محل التجميل، كنت أدخل إليه فتأتي مرحبة بي، أرتاح ليدها الخفيفة وهي تمسك بفمها خيطاً رقيقاً تمرره فوق بشرتي الناعمة، وذاك الملقط الذي يتنقل أسفل وفوق حاجبي دون أن يترك احمراراً ودون أن أتألم، كانت لدينا دائماً فرصة للكلام.

واكتشفت أنها تتحدث معي فقط، عرفت ذلك بعد أن أهديت تجربتي لعدد من الصديقات، هن في الغالب لسن صديقات؛ لأن الغيرة تدفع بعض النساء للالتصاق ببعضهن، تسألني إحداهن (من نسق لك حواجبك؟ وفي أي محل تجميل صبغت شعرك؟ أين قمت بقص شعرك؟)

أين؟ متى؟ كيف؟ فضول يدفعها لتكون ظليَ، معتقدة أن الصداقة مثل صبغة قماش رديئة، إذا وضعت مع باقي الأقمشة في آلة الغسيل سيحل لونها على القماش الآخر.

«أغلب من عرفتهن كن قماشاً رديئاً جداً سرعان مايتمزق عند أول ملامسة حقيقية، اعتدت أن أحتفظ لنفسي بما أعرفه، لم أكن شريرة، إنما أحاول دفع الشر قبل وقوعه، لهذا لا أسمح كثيراً بالاقتراب من قماشي حتى لا يتمزق.

كانت لدي صراحة تصل حدّ القسوة منحتني فرصة الابتعاد إلى المسافة التي أريد. كنت أشد حبلاً رقيقاً مغناطيسياً نحوهن، وفي اللحظة المناسبة أرخيه.

بالتأكيد لم أسلم من ألسنتهن، ولم أهتم لهذا الأمر.

كنت أبيعهن وهم تقاسم الشبه حتى يحسبن أن نجاحي نجاحهن. ذهبن إلى كل مكان ذهبت إليه وأحببته، نفس المطعم، ذات المقهى، صالون التجميل، لكنهن لم يحصلن على ما امتلكت أبداً. «

ثقة أم فرح بي كبيرة، تبوح لي بأسرارها وهمومها، في أحد الأيام قالت لي « إن لها ولدين في بغداد، يعملان هناك دون أن يتما مرحلة الدراسة الجامعية لصعوبة الحياة، وعدم توفر الأمن، بينما زوجها خريج كلية الهندسة من جامعات إنكلترا حمل خبرته وأتى ومعهما فرح الشابة المراهقة، أخبرهم بعض الأصدقاء أن ليبيا بلد واسع كثير الخيرات، وأهلها كرماء وإدارتها متساهلة مع الغرباء.

وقالوا إن كل من ذهب إليها عاد ومعه ثروة كبيرة.

هذه المبالغة يلجأ إليها الكثير ممن يبحثون عن فرصة عمل خارج أوطانهم إذا سنحت لهم الفرصة، وغالباً مايشعرون بالحرج الشديد لو أنهم أخبروا أصدقاءهم بحقيقة معيشتهم في الغربة؛ لأنها دليل على الفشل، يحدث هذا دائماً لكل المهاجرين عرباً وغيرهم، أخبرتني أن الغربة تعلم الكذب والمبالغة، تصبح الهجرة أكثر إغراء لمن ينتظر في بلده أن تتغير ظروفه الاقتصادية أو السياسية،

الهجرة هي هروب من مواجهة القدر في مكان واحد.

كان ذلك مادفع زوجها ليتحمل مع أسرته عناء السفر إلى ليبيا عبر الأردن، مرورا بسوريا، ومن هناك طاروا إلى ليبيا، بلد كل العرب، المفتوحة الذراعين، الحاضنة لشقائهم، وكل حلمهم أن يودعوا بؤسهم على شواطئها، وينسوا آلامهم.

كان سعيداً بحصوله على عقد عمل في مدينة بعيدة عن طرابلس هي رقدالين، حيث يسكن أحد معارفه من العراقيين، استقبله وأسرته الصغيرة لكن زوجة صديقه رحبت بهم لفترة مؤقتة، ثم بدأت تشعر بالضيق:

- البيت لايتسع لعائلتين.

رحلة البحث عن عمل في ليبيا تخضع لاعتبارات مختلفة، هناك الكفاءة، وهناك الحاجة التي تدفع أصحاب الكفاءات إلى العمل في أي مجال حتى لو كان عملا متواضعاً وبعيداً عن رغباتهم ومهاراتهم، أما الواسطة في الغالب فلاتتوفر لهؤلاء الوافدين، ولكن ثمة فرص يوفرها القدر أحياناً هدية غير متوقعة.

وحصل أبو فرح على فرصة أخذته إلى طرابلس، هناك عمل مترجماً، وعملت بدورها في صالون التجميل حيث التقيت بها، كانت تدعونى أكثر من مرة إلى بيتها لتناول الطعام العراقي الذي تجيد طهيه. عادة لا أتواصل مع من أتعرف عليهم خارج إطار العائلة وعملي، لكنني أحببتها ولهذا عرضت عليها أن تأتي إلى بيتي لتهتم بشعري وأظافري متجنبة استخدام أدوات ربما لايتم تعقيمها بشكل جيد، وعرضت عليها أجراً مضاعفاً.

هنا في بيتي كانت بهيجة، تنظف وتمسح زجاج النوافذ، ودخلت أم فرح لتعد خلطتها السرية من ألوان الصباغ، والتي لا يمكن أن تبوح بها لزبائنها. هذا الحرص مرده الحذق الذي تتمتع به من إظهار ألوان جميلة للصباغ لا يمكن للسيدات أن يخلطنها، وقد لاحظت أنها تتكلم مع بهيجة؛ بصوت هامس، لم أهتم لأمرهما كثيراً، وانشغلت عنهما بمهاتفة زوجي الذي كان خارج البلد.

# الدرس الأول في الهجرة

على بهيجة من هذه اللحظة التأكد من أنها تعلمت الدرس الأول في أخذ الحيطة والحذر من السماسرة العاملين في تهريب المهاجرين. تلتفت حولها ناظرة إلى الوجوه القريبة منها وتسأل نفسها: هل هناك من سبق له الهجرة وفشل ثم عاد ليكرر تجربته؟ قبل شهر ضربت موعداً لأم فرح في المصيف العائلي القريب من أبراج ذات العماد، والفنادق المنتشرة على الشاطيء المحاذي لها.

عندما وصلت إلى الباب وجدتها في انتظارها، اقتربت منها وحيتها ثم همت بالدخول، لكن أم فرح، ترددت واقترحت أن يذهبا إلى الحديقة الملاصقة لفندق باب البحر، فهمت بهيجة سبب خوفها وارتباكها، لكنها أصرت على أن الجلوس على الشاطيء المزدحم أفضل، لأنه حتى لو خطر لأي من السيدات اللواتي يسكن العمارة المقابلة أن تأتي فلن تتمكن من تمييزهما بسبب ازدحام المظلات والأطفال والعائلات التي تمنع الرؤية، بينما يمكن في المنتزه الملاصق للفندق يمكن لأي من المعارف أن يراهما معاً.

«كان المنتزه العائلي جزءاً من حديقة فندق باب البحر، ملاصقاً لأبراج ذات العماد، تلك المباني المرتفعة التي تطل مباشرة على البحر، وقد سميت في أوائل الثمانينات شيش مقلوبة، لشبهها بزجاجات الكحول، فتصميمها العمراني جاء شبيها بزجاجة ويسكي مقلوبة، وتفكه البعض بأن ليبيا تمنع الكحول وتعوض عنه بهذه الأبنية، التي كانت نتيجة لاستثمارات جمعية الدعوة الاسلامية، التي صممت لتكون مركزاً تجارياً ضخماً، بإطلالتها العالية على مجمع طويل من الفنادق السياحية، بعدها يأتي مباشرة المصيف العائلي الذي يخصص يومي الأحد والأربعاء للنساء فقط، فتذهب النساء مع الأطفال إلى المصيف مرتديات لباس البحر المكشوف، معتقدات أن بإمكانهن السباحة بحرية دون أن تكشفهن العيون المتلصصة، بينما الجميع يعرف أن كل من يقطن في الفنادق أو داخل أبراج ذات العماد وحتى العمارات التي يفصلها شارع واحد عن المصيف يمكن لهم مشاهدة الأجساد المثيرة في لباس البحر باستخدام العدسات المقربة.»

* * *

كانتا تسيران معاً فيما بهيجة تحاول شبك ذراعها الثقيلة بذراع صديقتها. وصلتا إلى البوابة الصغيرة، دفعت بهيجة رسوم الدخول، كان يوماً عادياً مختلطاً يسمح بدخول الرجال والنساء، سارتا بين صفين من البيوت المتآكلة جدرانها داخل المصيف، كل بيت منها لا يعدو أن يكون غرفة داخلها حمام وعلى بابها ستارة ملونة، الأطفال يركضون هنا في الممرات الفاصلة بين البيوت بلباس البحر، والصبايا يتسكعن، وتبرز كل واحدة منهن ما استطاعت مفاتنها، والشبان يمشون خلفهن واثقين أن لا أحد سيردعهم لو تحرشوا بإحداهن، فكل شيء

داخل المصيف مباح، أما خارجه، بعد البوابة مباشرة، فتحكم قوانين الشارع الليبي وأخلاقياته المختلفة.

اعتادت بهيجة مرافقة يسرى، إلى هذا المكان في أغلب أيام الصيف، وتعرفت إلى الشبان المسؤولين عن تأجير الكراسي والمظلات. دفعت الرسوم بينما ينتاب أم فرح شعور بالتقصير، لكن بهيجة وحالما جلستا خففت عنها الأمر قائلة:

- أنا من دعوتك إلى هنا، وأنت ضيفتي اليوم.

الشاطيء الرملي يمتد لمساحات بعيدة، تطل منه رؤوس المصطافين وكراتهم الملونة، وتشجعت أم فرح قائلة:

- أنا لم أر البحر في حياتي كلها؛ لأنني من مدينة في الجنوب العراقي، لم أغادرها. ولم أكن أخاف البحر أيضاً لعدم معرفتي به، ولا أمتلك شجاعة السباحة فيه، لم أحبه ولم أكرهه. فجأة وجدت البحر كبيراً واسعاً مخيفاً، في لحظة لن أنساها طوال عمري!

شجعتها بهيجة لتواصل وسألتها:

- كيف وصلت إلى المهربات؟ أقصد اللواتي يعملن في تهريب المهاجرين، هل يهربون النساء فقط دون الرجال أم العائلات؟

كانت أم فرح في حالة صفاء نادرة جعلتها تتخلى عن حذرها في الكلام عن تلك التجربة، بعد أن شعرت بأنها عادت إلى طرابلس أكثر ذلاً من دخولها إياها للمرة الأولى، لايوازي الذل والإهانة التي ذاقتها في إقامتها مع أسرة عراقية في بلدة رقدالين عندما جاءت من العراق، كانت بعد أن فشلت في الهجرة، قد قبضت عليها الشرطة ثم، عادت من جديد إلى (صالون التجميل) بعد خروجها من السجن.

كانت بهيجة تراقب ملامح رفيقتها، واحترمت صمتها وطلبت من نادل اقترب منهما مشروباً بارداً، شكرتها أم فرح، وأخذت تتكلم بصوت هامس مقربة رأسها أكثر من بهيجة:

- شجعتني امرأة عراقية تعمل معي في صالون الحلاقة والتجميل، في أحد الأيام همست لي ونحن جالستان في استراحة العمل بأن هناك عراقيين قد هاجروا في مركب ووصلوا جزراً إيطالية، وهناك تولت الحكومة الايطالية تأهيلهم ليكونوا خلال سنة فقط من مواطنيها.

كنت وزوجي في تلك الفترة، أقصد قبل سنة، نعاني من ظروف صعبة حتى غلبنا اليأس؛ لأن الوضع في ليبيا لم يعد كما في السابق، فهناك عراقيون سبقونا إلى طرابلس وأقاموا وعملوا لسنوات طويلة ثم عادوا بثروة أو رحلوا إلى بلدان أخرى بطريقة منظمة وشرعية.

قاطعتها بهيجة:

- نعم أصبح عدد العراقيين في ليبيا كبيراً، بل كافة الجنسيات، وسمعت أن

الدولة أخذت تنظم معها عمالتها وجودهم وتطلب منهم أوراقاً للإقامة بشكل شرعي؛ لأن الشركات الأجنبية كثيرة في البلد، وقد استقدمت معهم عمالتهم، وليس من مصلحتهم وجود عمالة أجورها منخفضة ومنافسة.

بهيجة فهمت هذا مما تتداوله السيدات في جلساتهن، لكنها غير قادرة على ترتيب كل ماذكرته في رأسها، وبقدر ماتريد أن تستوعب لمصلحتها فلم تعد خادمات البيوت كما في السابق بل أصبحت هناك مكاتب تنظم عملهن وتضمنهن من حيث اللياقة الصحية والأوضاع المادية.

وافقتها أم فرح وتابعت كلامها:

- صرت شغل زميلتي الشاغل ليلا ونهارا. زينت لي طريق الهجرة وأخبرتني أنهم حزموا أمرهم ودفعوا عربونا وينتظرون الرد مع عائلة أخرى.

بعد أيام قررت وزوجي أن نلتقي نحن العائلات العراقية الثلاث، وفوجئنا بأن زوج زميلتي في صالون التجميل لن يهاجر معها، لأنه مازال مرتبطاً بعقد عمل وحالما ينتهي سيلتحق بزوجته، لهذا قدم لنا عرضاً مغرياً:

- أن تبقى المبالغ المالية في حوزته وهذا ضمان كبير يقدمه لنا، وبدوره يعطيه للمهربات بعد أن نصل إلى الشاطيء الإيطالي.

كنت في تلك الليلة أفكر في زميلتي التي ودعتها أكثر من مرة في المحل بعد أن قالت إنها ستسافر هذه الليلة ثم تعود في صباح اليوم التالي. فكرت بما قالته لي وهي قلقة:

- السفر برفقة ابنتين فيه مخاطرة. لهذا كان عليها الانتظار لتسافر مع مجموعة عائلات.

كانت بهيجة في حالة انصات تام، لكنها شعرت بأن هناك شيئاً لابد من الانتباه إليه، لهذا سألتها:

- زميلتك كانت تخطط لاستدراجك إذاً مع العائلة الآخرى؟

لم تجب أم فرح على سؤالها وكأنها تريد أن تضع كل الحقائق دفعة واحدة، أو تعيد ترتيب ماجرى لتتبين أين حدثت الخديعة وتابعت:

- في تلك السهرة في منزلها اتفقنا أن نتصل بهاتف المرأة التي تتولى المهاجرين في عملية التهريب، حددنا موعداً مع تلك السيدة، وطلبت أن تقابلنا قريباً من فندق الشاطيء في قرقارش. في الموعد المحدد صباحاً وقفنا ننتظر، كانت سيارات كثيرة تقف قبالة المبنى الذي لم يعد فندقاً منذ سنوات، إذ تحول إلى مكاتب تجارية ومقاهٍ.

اتصلت بنا بالهاتف، ثم لوحت لنا بيدها من بعيد بعد أن تعرفت علينا، كانت جالسة وراء المقود في سيارتها البيضاء، ذهبنا إليها، فتحت الأبواب وجلسنا معها، وقبل أن نسألها قالت:

- لست أنا المسؤولة، الرئيسة هي التي تنظم الرحلات، أما أنا فمهمتي

تنحصر في الاتفاق مع الزبائن وقبض النقود، وفي الموعد المحدد نبلغكم بمكان اللقاء.

حينما ذكرت المبلغ المتوجب دفعه أحسست أن الكلام الذي سمعته من زميلتي مختلف. سألتها عن الضمانات، ردت باقتضاب:

- فكري وخذي وقتك. يومان فقط، فهناك مركب جاهز.

أعطتني رقم هاتفها، وعدنا.

سقطت تلك اللحظة كتلة حمراء متوهجة عند خط الأفق البعيد من البحر، وبدأت أنوار المصيف ترسل خيوطاً من الضوء الخافت إلى الجالسين على الشاطيء، نهضت بهيجة وسحبت عمود المظلة من فتحة في وسط الطاولة البيضاء المصنوعة من اللدائن، وضعتها على الرمل لتتيح لتلك الأنوار التسلل أكثر نحو عتمة المكان.

تململت أم فرح. نظرت إلى ساعة يدها وأخبرتها بأن الوقت تأخر، شعرت بهيجة بالخيبة فألحت عليها أن تتابع قصتها أثناء خروجهما أو تذهب معها إلى بيتها ليكون لديهما وقت أطول، فقد كانت متلهفة لتعرف الكثير.

في طريق العودة تابعت أم فرح حديثها بشكل متقطع، وفهمت بهيجة من حديثها كيف أنها أصرت في اليوم الثاني على الاتصال ومقابلة الرئيسة لتشعر بالاطمئنان، وكانت الوسيطة تطلب منها التمهل بعض الوقت ثم تعيد الاتصال بها وتحدد لها موعداً. في اليوم الثاني قبيل الغروب على طريق الشط، قريباً من فندق شاطيء النخيل ذهبت إلى ملاقاتها، هناك انتظرتها سيدة تجلس وراء مقود سيارة فارهة وتضع حجاباً أنيقاً على رأسها. وكما فعلت عندما التقت الوسيطة، دخلت إلى سيارتها، ولكن السيدة أسرعت بإدارة محرك السيارة وانطلقت بسرعة جنونية على الطريق السريع الموازي للشاطيء، وأخذت تتحدث إليها بثقة وتزرع الأمان في قلبها.

أخبرتها أنه لاداعي لحمل الأطعمة والألبسة فكل شيء متوفر، طلبت منها أم فرح أن تحمل ابنتها المراهقة حقيبة صغيرة جمعت فيها بعض الأشياء التي تعتز بها، وافقت الرئيسة ثم طالبتها بدفع نصف المبلغ (1800 دولار) على كل رأس، رفضت أم فرح وأخبرتها أن صديقتها قالت: يوجد تخفيض على الأولاد الصغار.. لم تخفف (الرئيسة) من سرعتها واستمرت تفاوض، ثم طلبت منها أن لا تخبر زميلتها العراقية بهذا اللقاء، وأن ذلك في مصلحتها، فبعد أيام، عندما يكون الطقس مناسباً ويكون القارب المجهز بأحدث الوسائل في مكان انطلاق آمن سيصلهم الخبر، عليهم الاستعداد يومياً.

توقفت أم فرح لتلتقط أنفاسها، ثم عادت تسرد وكأن ما مر بها تجلى بكل تفاصيله هذه اللحظة:

- بعد أسبوع طلبت منا الوسيطة أن نتهيأ، وأخبرتنا أنه سيكون هناك مكان سري للتجمع، وأن علينا عدم إبلاغ أحد بالأمر.

لم أخبر زميلتي العراقية، التقينا بالوسيطة وكان زوجي معي، شعرت بأن خوفه في هذه المرة أشد من رغبته بالسفر، وأخبرت المرأة أن اليوم يصادف عيد ميلاد ابنتي، ضحكت وقالت:

- سيكون لديك الوقت لتحتفلي به في إيطاليا. سألها زوجي هل يوجد حمام في المركب؟ قالت بينما كانت تغادر: سوف تنساه!

وانطلقت. كانت هذه الكلمة إشارة. ذهبت إلى البيت وحضّرت بعض الأكلات (كباب، وكعك، وفواكه)، وحزمت ابنتي حقيبة صغيرة حملتها معها، ذهبنا إلى المكان الذي حددته المرأة، كان على طريق الشط بجانب فندق شاطيءالنخيل مكان لقائي الأول بالرئيسة، وجدنا حافلة تنتظرنا وسيارة الرئيسة متوقفة أمامها، صعدنا الحافلة وسررنا بوجود أكثر من أسرة وكلهم من العراق، ولكن لم يسبق لنا أن التقينا بهم، مشت بنا الحافلة أكثر من ساعة، كان السائق قد دخل من أحد الشوارع ثم خرج إلى الطريق الدائري، وفجأة عاد فدخل أحد الشوارع الفرعية، وهكذا، كأنهم يتقصدون أن لا نعرف مكان التجمع.

وأخيراً وصلنا إلى مكان خارج طرابلس، ربما في تاجوراء، دخلنا إلى فيلا وجلسنا جميعاً في صالة واسعة مفروشة بأثاث متواضع، كانت قد سبقتنا عائلة عراقية، الساعة لم تتجاوز الثامنة مساء، ذهبت الرئيسة والوسيطة إلى غرفة قريبة من الصالة بعد أن طلبتا منا دفع المبالغ المتبقية، وأخبرتنا الوسيطة أنهم يقومون بتجهيز المركب الكبير لحملنا فيه بسلام.

كان عددنا مع الأولاد كبيراً، واستغربت وجود امرأة حامل، أشفقنا عليها جميعاً، أخذنا نتعارف على بعضنا، العائلة التي سبقتنا قالت إنه منذ شهر أخذتهم الرئيسة إلى بيت في مدينة (زوارة) ثم عادوا من جديد، وهكذا طيلة الشهر الماضي كانوا يحزمون حقائبهم.

صارت الساعة الحادية عشرة ليلاً ولم يأت أحد منهم، الأولاد، بل الكبار، شعروا بالتعب والجوع مما اضطرني ومعي بعض النساء إلى فتح أكياس الطعام وتوزيعه على الجميع، ما إن انتهوا من العشاء المتأخر حتى انتصف الليل. دخلت الرئيسة وقالت كلمة واحدة:

- انطلقوا الآن إلى الحافلة.

ركبنا جميعاً قبل أن تصعد ابنتي، تقدمت الرئيسة منها ونزعت حقيبتها وخاطبتها بقسوة شديدة:

- سأرسلها إليك في إيطاليا.

وكانت هذه الإشارة الثانية التي تجاهلناها، لم تشفع دموع ابنتي لها، صارت الرئيسة امرأة مختلفة لا تتحلى بالرحمة والحنان وتلك الرقة التي فاوضتنا بها، ثم أردفت قائلة:

- هناك مركب صغير سيحملكم إلى مدينة زوارة ومن هناك تنطلقون في مركب كبير.

أسقط في يد الجميع، حتى الرجال معنا بدوا مرهقين، لم يعترضوا أو يجادلوا في الأمر، ولم يوجهوا سؤالاً واحداً لها، كنا نساق كما تساق الماشية إلى حظائرها أو حتفها لا ندري.

في الطريق توقفت الحافلة، وصعد بعد قليل ثلاثة شباب حاملين أسطوانة غاز كبيرة وضعت في الممر، ثم انطلقت الحافلة من جديد حتى وصلنا إلى منطقة مجهولة على الشاطيء، لم نتمكن من التعرف عليها.

في تلك المنطقة رأينا تلاً صخرياً مرتفعاً ومجموعة من الشبان استلمت قيادتنا من جديد، كان علينا أن نهبط هذا التل الذي أصبح من الجهة الأخرى رملياً، وأخذ الرجال يساعدون النساء والأولاد على الهبوط إلى الشاطيء المعتم جداً. رأيت مجموعة من الشبان الأفارقة لا أعرف عددهم، لكننا فوجئنا جميعاً بوجودهم، إذ كنا نعتقد أننا نحن فقط المهاجرون، فإذا بهم ينوون الهجرة معنا.

الشبان الذين استلمونا كانوا يركضون ويتصرفون بسرعة شديدة وباحتراف كبير، حملوا أسطوانة الغاز ونفخوا قارباً مطاطياً ودفعوا بنا جميعاً وبسرعة إلى القارب، تذكرت قول الرئيسة (لن تبتل ثيابكم بالمياه!)، وهكذا وجدنا أنفسنا ندخل المياه مشياً على الأقدام لنركب القارب المطاطي.

* * *

كانت أم فرح وبهيجة تسيران مشياً على الأقدام على الطريق المؤدي إلى الحافلات، قريباً من المصيف، متجاوزتين سلسلة الفنادق الموازية له، ثم انعطفتا يميناً باتجاه أبراج ذات العماد هناك، في الجهة المقابلة، كانت محطة الحافلات الرئيسية.

كان على أم فرح أن تستقل حافلة إلى شارع (10)، هي لاتدري لما سمي بشارع عشرة فهو يقع في منطقة تدعى غوط الشعال وقد أصبحت معروفة بكثرة الغرباء فيها من كافة الجنسيات، ومن النادر أن تجد ليبيين يسكنونها. أما بهيجة التي تود أن تصبح رشيقة فتابعت السير إلى المدينة القديمة مكان إقامتها مع صديقة مغربية تعمل نادلة في إحدى صالات الأفراح الكثيرة التي باتت تنتشر في طرابلس منذ سنوات، بعد أن تم الاستغناء عن نصب خيم الأفراح التي كانت تعترض المرور في الشوارع الفرعية والرئيسية.

في الطريق تمنت بهيجة لوسمعت كل ماحدث في الرحلة، فهي تستعد منذ شهور، والمغربي الذي يعمل في مقهى يدعي أنه ساعد كثيراً من المغاربة على الهجرة، وكانت تلك الرحلات مضمونة، لكن المبلغ الذي طلبه كان أكبر بكثير مما أخبرتها به أم فرح.

عندما دخلت إلى المدينة القديمة من باب قوس ماركوس أوريليوس، حيث تنتشر مجموعة من المقاهي والمطاعم والفنادق السياحية، رأت مجموعة سياحية أوربية، وقفت تتأمل أقفيتهم، كان معظمهم من العجائز، هزت رأسها وداخلها إحساس بالغبن وهي تسأل نفسها: بماذا هم أفضل منا؟ نظرت إلى

ساعتها وشعرت بتأنيب الضمير لغيابها هذا اليوم ساعات طويلة على سارة ابنتها المتبناة، كانت البنت شقية، لكنها تستجيب لكلامها إذا مانهرتها أو صفعتها أحياناً، كانت بهيجة تعاملها بحنان أم وحزم والد، وقفز السؤال الذي تحاول الهروب منه دائماً: - ولكن إلى متى ستدوم هذه الأمومة المستعارة؟

لديها أب غني لايريد الاعتراف بأبوته لها، وأم سافرت إلى المغرب ولم تعد، وانقطعت أخبارها تماماً بعد أن وعدت بهيجة بالعودة خلال شهر، وهاهي سنوات ست تمضي بينما ماتزال سارة في كنفها ترعاها.

حين فكرت أن تكون أمها بالأوراق الرسمية طُلب منها أن تكون متزوجة أولاً حتى يسمح لها بالتبني، سارة لاتعرف لها أماً إلا بهيجة وحان موعد دخولها إلى المدرسة هذا الخريف، وفكرت بهيجة بأن الحل الأسلم لهما أن تبقى في دار تعتني بمثل هذه الحالات، وكان عليها أن تذهب في الغد ومنذ الصباح إلى تلك الدار لتقوم بالإجراءات الخاصة بإيداع الطفلة. قالت لنفسها وهي تغص بدمعة:

- حان وقت فطامها وفصامها.

* * *

بهيجة أصبحت أماً دون سابق معرفة بالأمومة، وصارت الفتاة ترافقها أينما ذهبت. حدث ذلك بعد أن غادرت منزل السيد عبد المجيد على الرغم من أنها اعتقدت بأن علاقتها الطيبة بزوجته كانت مصدر حماية لها إلا أنها هي من طردها.

السيد عبد المجيد كان يمتلك كثيراً من الشركات، كل ما في حياة عائلته كثير وكبير، ضخم وفخم، سفرهم شبه دائم، قصرهم كبير وأثاثهم ثمين، حياتهم لا تشبه حياة الآخرين، إلا أن السيدة زوجته تفكر مثل باقي النساء اللواتي عرفتهن فيما بعد.

"لن تنسى أنها قدمت من المغرب إلى بيتهم مباشرة، عملت لأكثر من سنتين لا تعرف معنى العطلة ولم تكتشف مدينة طرابلس تماماً؛ لأنها كانت إذا سمح لها بالخروج تركب سيارة العائلة الحديثة، وذات مرة قلدت السيدة وجلست في المقعد الخلفي إلا أن السائق الجزائري صرخ محتداً:

- شكون تحسابي روحك؟

لم تجادله، الجزائريون يتحولون إلى أجلاف دون سابق إنذار إذا كان عليهم أن يؤدوا خدمة لأحد.

هناك في القصر الكبير تعلمت أن لا تعصي الأوامر في النهار وبحضور الغرباء، وإن كانوا قلة ونادرين جداً، وفي الليل، عندما تجلس السيدة لتقلب المحطات الفضائية وهي مسترخية على كنبة وثيرة، كانت تطلب منها إعداد الشاهي الأخضر بالنعناع مع صحن كبير من المكسرات.

تعلمت بهيجة كيف تضع مفرش الدانتيل الثمين على الصواني الفضية، والكؤوس في حوامل فضية مزخرفة تسكب الشاي بعد أن تضع ورقة نعناع أخضر

فيها.
وقبل أن تمضي تستبقيها السيدة لتسألها عن معرفتها بأساليب السحر والشعوذة. أنكرت بهيجة معرفتها بالأمر، وبامتعاض سألت نفسها:- لماذا يتهم جميع المغاربة بتعاطيهم أساليب السحر، هكذا تظن معظم النسوة هنا!
ثم تجاوزت هذا الغضب والامتعاض بعد أن اكتشفت أن عدم معرفتها جعل المسافة بعيدة بينها وبين السيدة التي صرفتها لتستكمل عملها في التنظيف.لقد أتى اكتشافها لهذا السر من خلال امرأة مغربية تعمل لدى صديقة (السيدة)، همست لها قائلة:
- عليك تعلم بعض الفنون والحيل، وأنصحك أولاً بتعلم الكارطة.
حدث ذلك عندما التقتها في حفل شواء أقيم في مزرعة السيد عبد المجيد، واجتمعت أكثر من عائلة هناك. في المزرعة الواسعة جداً تخيلت بهيجة وكأنها داخل غابة من الأشجار المختلفة والمتنوعة تحتوي على فيلا جميلة، يطلقون عليها اسم استراحة.

***

استراحتها في الشرفة طالت كثيراً والعتمة لفت المكان بأكمله، الضوء الشحيح المنبعث من الغرفة فقط هو الوحيد القادرعلى إنارة مكان يبتعد عن زحمة المدينة. فجأة رأت ازدحاماً كبيراً لأناس أخذوا يخرجون من الباب، كان التاجر صاحب المركب ومعه بعض الرجال قد انتهوا من ترتيب شأنهم، قبضوا المبالغ المتبقية نقداً، اتفقوا مع رجل ادعى أنه قادر على قيادة المركب، ومن لهجته عرفت أنه (تونسي)، كان شاباً يتميز بطول القامة، وجهه مستطيل، ذقنه حادة وعيناه واسعتان، وترتفع نهايتهما قليلاً باتجاه أعلى وجنتيه، أنفه مستقيم طويل، فمه يزينه شارب خفيف متصل بلحية نابتة، تحدث بلكنة تشوبها مفردات فرنسية، ملابسه تدل على أنه لم يعمل أبداً في أعمال قاسية، كان يستمع إلى التاجر صاحب المركب باهتمام شديد، استلم جهازاً أكبر من أن يكون هاتفاً نقالاً، تفحصه، حفظ فيه عدة أرقام كان يمليها عليه الرجل، ورغم أن بهيجة لم تكن بعيدة عنه، لم تتمكن من تميز كل ماتحدثوا به، فقد أصبح الضجيج أكثر ارتفاعاً.
استدارت تبحث حولها، كان الجميع يستعد وقد حملوا حاجياتهم على أكتافهم، عادت لتلتفت يمنة ويسرة باحثة عن رضا فلم تجده، تقدمت نحو الشاطيء بعد أن طُلب منهم السير بهدوء دون جلبة أو ضجيج حتى لا يثيروا الشبهات، كانت تعلم أن قارباً واحداً لايكفي ولايتسع بعد أن اقتربت أكثر من الشاطيء الرملي. كان المركب غير بعيد، وكان عليهم أن يمشوا مسافة لابأس بها داخل المياه الضحلة للبحر، فجأة كف رأسها عن التفكير وتراجعت الذاكرة إلى منطقة بعيدة. الآن تسجل فقط مايجري حولها وكأنها ولدت في هذه اللحظة دون ماض ودون تاريخ، لا ذاكرة ولا وطن ولا أصدقاء، دون أي تجربة،

انتبهت إلى يد رضا تجذبها باتجاه قارب متوسط الحجم.

- بهيجة: تعالي معي اساعدك في الوصول إلى المركب.

كانت الشابة تسير بمحاذاتهم وقد وضعت شالاً رقيقاً فوق رأسها ولفته جيداً حول رقبتها.

حدث تدافع كبير، كانت مجموعة من شبان أفارقة تحاول الصعود أولاً، لكن صاحب المركب وقف في وجههم يسد الطريق عليهم، أمرهم بالتريث قليلاً ومراجعة الأسماء كان حاملاً في يده مصباحا صغيراً، ينظر إلى وجه كل واحد منهم ثم يأمره بالتوجه نحو المركب بعد أن يستلم منه بطاقته الشخصية وكل الأوراق التي تدل على هويته.

في لحظات الانتظار تلك يحدث أن تتقارب المسافات بين رفاق السفر، تسقط الأقنعة والحواجز. مرت بتلك التجربة أثناء انتقالها في الطائرة من المغرب إلى طرابلس، كانت الشابة في المطار تقترب منها وتلقي عليها التحية:

- مساء الخير، الأخت من المغرب؟

ردت بهيجة بصوت خرج جافاً من حلقها، وكأنها استجمعت كل الرطوبة في فمها دافعة لسانها ليتحرك:

- نعم مغربية، من مراكش.

تتابع تساقط الضوء المنبعث قوياً على الوجوه المرهقة انتظاراً، الوجوه المتعبة من ضنك العيش، لكل وجه ملامحه المتفردة ولونه الخاص، لكل وجه روح تحمل وطناً كان لها قبل الآن فإذا بها تنتقل إلى هذا البرزخ ليبيا، كانوا بين الحياة والموت، ينوون الانتقال إلى عالم آخر مجهول يمثلُ الجنة، كل وجه منهم يحمل حلماً يشترك مع أحلام الآخرين، وهاهم يتقاسمون معاً رحلة الانتقال بين البرزخ والجنة الموعودة.

جاء دورها، لمع شعاع قوي، أغمضت عينيها بعد أن بهرهما الضوء، في تلك الثواني شعرت أن عمراً جديداً سيبدأ الآن، طفلة تسقط من رحم هذه الأرض، وهذا التاجر هو طبيب الولادة، يتفحصها ليرى إن كانت صالحة للحياة القادمة أم لا؟ أوراقها تثبت جواز مرورها، تمشي بقامتها الطويلة الممتلئة وملامح وجهها الخمرية الخشنة، لم تكن بهيجة تمتلك كثيراً مما يدعونه الأنوثة، وكأنها ولدت لتعمل خادمة، تقاسيمها ظلمتها في البيت والمدرسة وفي الغربة.

بهيجة، التي تحمل رقة مشاعر لا تتحلى بها يسرى الفائضة أنوثة ومشاعر إنسانية عالية، لا يمكن أن توصف بها السيدة التي استقدمتها من المغرب لتعمل عندها، تنظف المنزل ومن ثم تستعين بها لتسحر زوجها الخائن!

بهيجة ترى أنها أفضل من الشقرا التافهة التي لم تكمل دراستها، ولم تنل الشهادة الإعدادية، ولاتعرف أي لغة أجنبية.

مستغرقة في تأمل حياتها ويد رضا تساعدها، بعد أن أسرع للحاق بها لتصعد إلى المركب، وقفت تتأمل وجوهاً سمراء ووجوهاً سوداء ووجوهاً بيضاء، قامات

مختلفة، وكان عدد النساء أقل مما توقعت، ومعظمهن أتين مع أزواجهن إلا هي والشابة، فتوقعت معاملة مختلفة لهما، تماماً كما كان يحدث عندما تضطر إلى ركوب الحافلة (الإفيكو) وهي تنتقل من مكان إلى آخر في طرابلس.

كانت بهيجة تشعر بتلك المضايقات السخيفة من الشبان المحرومين من احتضان جسد امرأة، إلا أن الأمر لا يتطور إلى أكثر من ملامسة تبدو غير مقصودة في غالب الأحيان، هذه المضايقات أسعدتها كثيراً وجعلتها تتساوى مع السيدات اللواتي عملت في بيوتهن، حينما تشتكي إحداهن لصديقتها من رجل يطاردها وتقفل في وجهه خط الهاتف، أو تغير اتجاه سيرها أثناء قيادة سيارتها هرباً من عبث الشباب المجانين الذين يعتقدون أن رؤية امرأة تقود سيارتها وحيدة فرصة سانحة لمغامرة سريعة.

ما توقعته أن تكون موضع ترحيب لم يحدث، فقد أخذوا يتزاحمون على احتلال الاماكن الأكثر أماناً، سبقها رضا، انحدر نحو أسفل القارب، أمسك يدها وشدها نحوه، كانت أكثر حذراً لأن لها جسداً أضخم منه، بالرغم من أنه قضى وقته بواباً يحمل طوال النهار كل مايطلب منه على ظهره ويصعد سلالم العمارة إذا كان المصعد معطلاً.

لم يكن الظلام في بطن القارب يسمح لها بالرؤية، ثم أخذت عيناها تعتادان العتمة، رأت بعض النور يتسرب من مكانين، ولكنه خافت خجول، وكان التماع رؤوس السجائر المشتعلة يظهر بعض ملامح هياكل أجساد أنهكها الترحال، فجأة لمعت مصابيح جديدة، ازداد النور في القارب، انتبهت إلى شاب يقف قريباً من الفتحة المؤدية إلى الداخل يعبث بأسلاك موصولة بالمحرك الساكن. كانت تنتظر وصول الشابة، سألت رضا عنها، أجابها باختصار شديد:

- جاية بعدين شوية.

كلما طال أمد الانتظار ازدادت الجلبة فوق سطح المركب، أخذت ترمق الخشب فوق رأسها، وَقْعُ الأقدام الثقيلة يهز السقف الخشبي، توقعت في تلك اللحظة انهياره فوق رؤوسهم، قبل الإقلاع كان في الداخل على الأرض الخشبية غير المستوية فرش مهترىء ورطب، أخرج رضا غطاء سميكاً افترش مساحة لابأس بها، أشار لها بالجلوس، استندت بظهرها على الجدار، اشتمت رائحة غريبة تشبه رائحة وقود مختلطة برائحة قطران، على يسارها كانت رائحة بقايا الأسماك قوية، تحسست يدها الممتدة في عتمة المكان شبكة صيد مرمية وبضعة حبال، عادت إلى الجلوس بشكل مستقيم ثم أخذت من حقيبتها معطفاً شتوياً وضعته خلف رأسها، أصبح الوضع أفضل قليلاً، تزاحمت الأجساد بجانبها وأمامها وقريبا منها، بعضهم جلس على طوافات بلاستيكية، وقتها داهمها القلق وأحست بالخوف، لاتريد التفكير بالغرق، تماماً كما انتابها هذا الأحساس في أول رحلة لها بالطائرة، حين بدأت بالإقلاع من المغرب ووقفت المضيفة في مقدمة الطائرة تفتح ذراعيها مشيرة إلى مخارج النجاة، أغمضت

عينيها حتى لاتراها قائلة لنفسها:

- الموت حين يأتي لن ينتظرها كي تنفذ كل تلك الحركات الغامضة.

هاهي الآن ترى الوجوه الجديدة لأسرة كاملة بأطفالها تدخل عمق القارب، أعادت لها الذاكرة قصة أم فرح وتجربة الهجرة، تعلم ماينتظرها من مخاطر، ولكن أم فرح وقعت ضحية نصب، لهذا تأكدت منذ البداية أنها لن تصعد على متن قارب مطاطي، وإلا كان قرار التراجع حاضراً بقوة لو حدث ذلك، أكثر ما تخشاه هو أولئك الرجال الأفارقة، لكن رؤية الأسرة العراقية حملت الطمأنينة إلى قلبها، بالإضافة إلى مرافقة رضا الجالس قريبا منها تضاعف شعورها بالأمان.

كانت صراحة أم فرح قد جعلت بهيجة أكثر حذراً، ولكنها لم تستطع أن تثني عزمها عن الهجرة بقارب الموت كما أسمته، حاولت أن تزرع الخوف في قلبها أكثر من مرة عندما كانتا تلتقيان في بيت الكاتبة وهذا مافضح أمر بهيجة لدى هذه المرأة الفضولية، فضولها لايشبه النساء اللواتي عملت في بيوتهن، كانت السيدة تهتم كثيراً لأمور السحر والشعوذة وقراءة فنجان القهوة، أما يسرى فجلُ اهتمامها ينصب على تغطية غيابها عن المنزل بحثاً عن مغامرة عاطفية، هدى كانت مشغولة بنظافة بيتها وإقامة دعوات الغداء والعشاء لمجموعة من النساء المسليات، وللسيدة (صفاء) ضرتها.

فيما ترى الكاتبة أنهن نساء تافهات، بالأخص الشقرا، أما هي فلا يمكنها إلا أن تصفها بالمرأة المجنونة، حتى لو كانت أقلهن ثرثرة وادعاء للرصانة، لكن سرعان ماتراجعت عن هذا الوصف وندمت؛ لأنها الوحيدة التي منحتها الوقت لتسمع قصة ابنتها المتبناة، وحاولت مد يد المساعدة لها في إدخالها لمركز يعتني بها، ووعدتها بزيارتها وشراء الهدايا لها، ودمعت عيناها، لاتريد أن تتذكر كيف ودعت سارة في مكان يؤوي الأولاد الذين لاينتمون لأسرة، ويطلقون عليه اسم (بيت الأمل)، وكيف أقنعت الكاتبة الطفلة سارة بأن صار لها مجموعة كبيرة من الإخوة، لكن سارة تعلقت ببهيجة وبكت كثيراً وهي تحتضنها مساء أمس، وتعلم أنها كذبت عليها حين وعدتها بالعودة لتحملها مرة أخرى معها إلى بلاد جميلة. كانت بهيجة صادقة في مشاعرها، تحلم بتغير مصيرها بعد الهجرة، ستصبح أغنى وتنال الجنسية ثم تعود، مثل أي مواطنة أوروبية، تأتي في زيارة سياحية، تمشي برفقة دليل بين الآثار.

فتاتها الصغيرة التي تغطي نصف وجهها نظارة طبية لم تكن طفلة جميلة، كانت بائسة جداً، ترضى بأي معاملة من أمها المستعارة (بهيجة)، كانت سارة قد بلغت السابعة تقريباً، وفهمت أن أمها سافرت إلى المغرب وأن والدها هنا لكنه لايريد أن يعترف بأبوته لها.

كانت سارة تذهب إلى كل البيوت التي تردد عليها أمها طوال الأسبوع، ويوم العطلة يصبح نهاراً مميزاً؛ لأنها تخرج إلى مدينة الملاهي مرة وإلى شاطيء البحر مرة أخرى، تحت الضوء الخافت الساقط فوق رأسها تبين رضا أن بهيجة

تمسح بطرف كمها دموعها، سألها بجرأة هذه المرة:

- بهيجة: ابنة من تلك الفتاة؟ لطالما احترت في أمرها.. هل هي من زواج سابق؟ أم قريبتك؟ أين هي الآن؟

تأوهت، وأحست لحظتها أنها لو حكت عنها، فقد يخفف ذلك قليلاً من ألمها. لن تهرب من ذاكرتها طوال العمر، ولا من تأنيب ضميرها بعد أن رأت الأطفال مع أسرهم بالمركب.

- لا أعرف هل ارتكبت خطأ أم لا؟ هذه الطفلة التي كتبت لها الحياة رغم أنف الجميع، هل أسلبها إياها وأورطها معي بهذه الرحلة الخطيرة؟ يمكن أن نموت جميعاً.

قاطعها رضا بصوت مبحوح:

- «بعد الشر»، القدر مكتوب علينا وعليها، لوأنها ستحيا أو تموت ليس بيدك ولا بيدي..» خليكى مؤمنة بالله، أمّال.

خرجت من صدرها تنهيدة طويلة وكأنها جمعت أنفاسها كلها دفعة واحدة. كان صوتها مرتعشاً لكنه لايشي بالخوف، لم تعد تخاف من أحد، هاهي في مركب يتهيأ للإقلاع والابتعاد عن كل من عرفتهم، عن كل ما يمكن أن يهدد حياتها لو فضحت سره. وأسرار بهيجة جزء من أسرارهم، لكن تلك الكاتبة تريد معرفة كل شيء، لايهمها أحد أكثر من تحبير أوراق وطباعتها، أخبرتها انها تنوي كتابة رواية ولم تعثرعلى حكاية بعد، وترى بهيجة نفسها الآن غير ملزمة بتنفيذ وعدها، فهي ستصل شواطيء إيطاليا وهناك ستضيع تماماً، ولن تصلها الكاتبة، وفي أسوأ الأحوال وهو مالا تتمنى حدوثه أن يغرق المركب.

وحتى حالة الغرق حسبتها الكاتبة الليلة الماضية، وطلبت من بهيجة أن تضع هذه الاسطوانة الصغيرة مرفقة بورقة وتكتب عنوانها ثم تضعها في زجاجة بلاستيكية وترميها في مياه البحر.

عادت بهيجة من جديد تحدث نفسها بأنها امرأة مجنونة، امرأة لاتهتم بحياة الآخرين كما تدعي إلا من أجل روايتها.

أجل، كانت ليلة حافلة، موعد يسرى وانتظار الكاتبة في المطبخ معها، ولقاء الشقراء مع عشيقها في بيت يسرى، واتفاق الكاتبة معها على تسجيل هذه الرحلة وفضح أسرار من تعرفهم كل ذلك جعلها ليلة مواعيد، أو كما قالت الكاتبة عنها: ليلة نساء الريح.

# طرابلس مدينة الأسرار

بعض المدن تبدو منتجة للضجر والسأم، في الحين ذاته لابد أن تجد فيها أمكنة أو زوايا منتجة للحياة والكلام، أمكنة حميمة دافئة.

طرابلس يبحث أهلها وساكنوها عن شفراتها السرية، يبحثون عن إجابات لقلقهم اللجوج حول مايمكن أن تمنحه مدينة جميلة مفتوحة على شواطيء المتوسط بهذا الاتساع المخيف، هم مجرد بشر متمردين على أمكنتهم التي اعتادوها ليس إلا، لهذا تراهم يقترحون عوالم جديدة.

كل واحد منهم يقترح تاريخاً يخصه وحده، في قرارتهم يعرفون أنهم مجرد أناس مهمشين ومع ذلك، يسعى كل واحد منهم إلى تدوين حياته أسوة بالأبطال الذين يتابعونهم على الشاشة، وأولئك الذين يسمعون عنهم.

هم أناس ينشدون الاطمئنان في فتح مسارب جديدة، يحتمون ببعضهم في علاقات هشة لاتتعدى الفضول الإنساني لمعرفة خبايا الآخر، ويطلقون عليها اسم (صداقات).

وما ذنب المدينة حتى تحمل وزر قلقهم إذاً؟ وماذنب كونها مدينة دافئة بينما مشاعرهم نحوها باردة، يكيلون التهم لها بأنها لاتمنحهم مايشتهون، وشهواتهم لاحدود لها، وبأنها لاتلبي رغباتهم ونزواتهم لا يمكن أن تنتهي.

تكتفي طرابلس كل مساء بإقفال أبواب الأسرار وتتكيء على وسادة رمل شاطئها، وتغرق في النوم، فيما يصحو البشر ليصبوا ضلالهم في بحرها بعد أن شربوا ماءها النقي، ناقمين عليها من جديد.

# نساء الريح والكتابة

من هن هؤلاء النسوة؟

يسرا والشقرا وسومة، هدى وبهيجة وأخريات؟

(بهيجة امرأة مغربية ضاقت بها سبل الحياة في المغرب، تدعي أنها من أسرة كريمة، لكنها أحبت رجلاً قضى على عذريتها. ولأنها من أسرة محافظة قررت قبول عرض السيد الليبي الثري عبدالمجيد حين التقته في أحد الفنادق ببلدها، ولتتمكن من السفر وقعت معه عقد عمل فهو يمتلك عددًا كبيراً من الشركات، وقد أخبرها أن عملها سيكون في منزله فقط، لاتخرج إلا في إجازات شهرية، وفي الأعياد، هكذا أقامت عدة سنوات في منزله ثم طردت دون أن تعرف سبباً قوياً يجعلهم يستغنون عن خدماتها، بعد ذلك قررت البحث عن عمل في البيوت الليبية وقادتها الصدفة للعمل في بيت هدى.

هدى تقطن عمارة مطلة على البحروسط طرابلس، وتجاورشقتها شقق كثيرة، وهي لا تقيم علاقات اجتماعية مع جميع السكان لظروف زواجها شبه السري، مما دفعها لانتقاء سيدات يمتلكن مواصفات محددة، تقيم معهن علاقات ودية حتى لاتعاني الوحدة في غياب زوجها الذي لا يأتي إليها إلا كل صباح عندما يخرج إلى عمله، وفي المساء يأتي مع زوجته وابنته لزيارتها.

كانت أطوارها شديدة الغرابة، لم تكن سوى الزوجة الثانية لعادل فيما زوجته الأولى التي لا تعلم بأمر الزواج تصر على الارتباط بصداقة هدى ولاتتصور نفسها بعيدة عنها.

يسرا تقطن في نفس العمارة، لكن سومة والشقرا دائمتا التردد علي بيتها، لهذا كانتا تتشاركان معها حتى في صداقتها وعلاقاتها الاجتماعية.

أنا الكاتبة تعرفت على هدى لأنها تقرأ كل ما أكتبه في الصحف.

تستوقفني أمام باب المصعد، وتطلب مني استعارة بعض الكتب من مكتبتي.

بهيجة قررت أن تروي قصتها وتسجلها لي، لا أعرف عنها إلا القليل ولا عن ابنتها بالتبني أيضاً، بعد أن منحتها مبلغا من المال في تلك الأمسية قبل سفرها، رضخت لطلبي.. لهذا لن تكتمل فصول الرواية إذا لم تساعدني بهيجة في الأمر.

سأكتب عنهن وأنتظر أن تفي بوعدها لي وترسل المسجل الصغير، الذي يحمل ذاكرة كبيرة الحجم وحساسية عالية لتسجيل الأصوات، سأروي حسب أهمية كل شخصية، وليس كما يرغبن جميعاً أن يرين أنفسهن؟!

# الكاتبة

سمعت قصصاً كثيرة حول الهجرة غير الشرعية، ولم أتوقع يوماً بأنني سألتقي شخصاً عزم على أن يخوض هذه المغامرة، تماماً مثلما نسمع عن الموت، لكننا لا نعرف ما الذي يحل بعده، ماهو هذا العالم؟ ماهي حقيقته؟ الكثير ممن نحبهم وممن لا نحبهم يموتون، ونحن نعتقد أن هذا العالم الغامض لا يمكن الاقتراب منه، ونظل حبيسي سجن السؤال.

اكتشفت أن عالم الهجرة هو آلاف البشر الذاهبين إلى مصير مجهول في الحياة، وهم بنفس قدر التصاقهم بها يحلمون بعالم أفضل ينتشلهم من بؤسهم اليومي.

مرة أراهم يشبهون أولئك الذين يفجرون أنفسهم كل يوم في بغداد وفلسطين، وهم على اعتقاد تام بأن ما ينتظرهم هو الشهادة فقط وليس الموت، ومرة ثانية أراهم ذاهبين نحو الموت انتحاراً، وأسأل نفسي: بأي قدر من الشجاعة والقوة يتحلون؟

مهاجرون غرباء لانعرف عنهم شيئاً يموتون غرقاً في الغالب، نسمع في نشرات الأخبار أعدادهم فقط، يتحولون في الذاكرة إلى مجرد رقم.

كم شاباً منهم وعد حبيبته بأنه سيذهب إلى أرض جديدة تنتظر مواهبه وتواضعه بطلب أجر مادي رخيص مقابل تحقيق أحلامه بحياة كريمة؟ وكم من أمهات لايعلمن أن أبناءهن أصبحوا في عداد المفقودين وهن يعتقدن أنهم في بلد آخر يعملون.

كلما قرأت الشريط الإخباري أسفل الشاشة مكتوبا عليه (غرق مركب يحمل مهاجرين غير شرعيين قبالة السواحل وعلى متنه عدد...) أسأل نفسي:

هل يحمل مهاجراً له أبناء ينتظرون أوبته؟ أم ربما يكون مجرد مجرم قاتل أوسفاحا هرب من وجه العدالة، بعد أن ارتكب جريمته فاراً نحو البحر ليغسل ذنبه في مياهه المالحة.

وكلما شاهدت ذلك البرنامج على أحد الفضائيات، والذي خصص حصته للبحث عن الغائبين عن أوطانهم وبيوتهم، أرتجف وأنا اسمع أحدهم يقول إن لديه قريباً غادر إلى ليبيا وانقطعت أخباره، ويعده مقدم البرنامج بالبحث والاعلان عن اسمه، إلا أنني اجد نفسي أجيبه، ربما غرق في البحر... التائهون هنا أصبحوا طعما للأسماك.

أسئلة كثيرة يمكن أن تؤرقني هذا المساء رغماً عني، ورغم أن هناك عوالم أخرى وحكايات ليس لها علاقة بالهجرة والمهاجرين تدور حولي، لكن بهيجة التي جلست معنا في مطبخ يسرى أسرت لي هامسة بأنها حجزت على مركب يقلها إلى إيطاليا، ودفعت نصف الأجرة فقط!

صرتُ في تلك اللحظة وجهاً لوجه مع إنسان من لحم ودم يغامر بحياته، امرأة

تقاسمت معها كثيراً من فناجنين القهوة والخبز والملح ستغادر في مغامرة ربما يكتب لها الموت فيها، أو في أحسن الأحوال العودة إلى السجن، أما لو حالفها الحظ فستكون على الضفة الأخرى من هذا الشاطيء الواسع الذي يقابل ليبيا.

- هكذا إذاً.! كيف؟ من أعطاك النقود؟ من ساعدك؟

شعرت بالفضول وبالحزن، رأيت امرأة أعرفها جيداً غسلت الصحون المتسخة في بيتي أكثر من مرة، تريد أن تغرق في البحر، اقتربت تهمس لي:

- لاتخبري أحداً الآن، لا أعرف كيف ستمضي الليلة معي. يسرى طلبت مني المبيت هنا مع أولادها.

وانتبهت في تلك اللحظة إلى أنها لا تقوم بخدمة البيت، كانت يسرى تدور قلقة ثم تذهب لإعداد القهوة لنا، أما الشقرا فكانت تمسك بهاتفها النقال، متنقلة بين الصالة والمطبخ وتتحدث إلى أحد عشاقها.

لم أر أحداً من أولادهما، قفزت الأسئلة إلى ذهني! لماذا أنا هنا؟ ماهو المطلوب مني؟ لماذا دعتني على وجه السرعة؟.

- أرجوك.. تعالي هناك أمرمهم جداً، تعلمين أن زوجي مسافر هذه الليلة.

كنت في ندوة أدبية، قبل أن تنتهي غادرت تحت إلحاحها المتواصل، لم أصعد إلى بيتي، بل ذهبت إليها مباشرة..

عندما دخلت سحبتني من يدي وأدخلتني إلى غرفة الاستقبال بعيداً عن بهيجة والشقرا وهمست:

- قررت أن أفي بوعدي وأقضي ليلة بين أحضان كمال.

تحدثت ببساطة شديدة وكأنها تقول لي: سأنام في بيت والدتي.

قصتها مع هذا الرجل أثارت فضولي، لا يمكن تصنيفه على أنه فضول امرأة تهوى الثرثرة والفضائح، بل كان فضول كاتبة تعثرت بقصة غريبة لا يمكن أن تحدث مع أحد كل يوم. ولن تكون الخيانة الزوجية هي القصة المثالية والفريدة، ولكن لأن ما كان يدور بينهما هو أكثر من الخيانة وأغرب، ولأنني عندما رأيت يسرى لأول مرة في بيت هدى قررت أنه لا يمكنني إفساح المجال لها لتدخل حياتي.

يسرى امرأة تكبرني بسبع أو ثماني سنوات، وتعترف بوصولها إلى الأربعين من عمرها. لكنها كانت ما زالت تحتفظ برشاقة عارضة، فهي ممشوقة القوام، لها وجه يحمل ملامح دقيقة وعلى الرغم من عدم تناسقها إلا أنها تتمتع بجمال غريب، امرأة تمتلك أنوثة فائضة لا يمكن لأي رجل الصمود أمامها.

التقيتها قبل سنة ونصف في بيت هدى بالرغم من أننا جميعاً نسكن في عمارة واحدة تطل على البحر، عمارة فيها أكثر من عشرين شقة، وسبق أن حذرني زوجي من الاختلاط بالجيران وساكني العمارة فهو دائم السفر، وأنا بدوري مشغولة بحضور الندوات والأمسيات مما جعل التواصل مع الجيران

محدودا، لكن انشغالي الدائم لم يمنحني الدفء الذي أفتقده إذا كنت وحيدة، خمس سنوات من الزواج ولا أعرف ما الذي يمنعني من الإنجاب، زوجي مكتف بأولاده من زوجته الأولى، ولايبالي إن أصبحت أماً أم بقيت عروسه الجميلة.

# مواعيد لنساء الريح

لطالما كنت أحلم بكتابة رواية، أربكتني أشياء كثيرة، فكرت مرة بالحكاية وأخرى بمناخها وطقسها، وعشرات المرات بكل ماقرأته من كلام النقاد على روايات قرأتها وأعجبتني، كان الخوف يمنعني كل مرة، وعندما صارحت نفسي بصدق قلت:

- أنا لا أمتلك الموهبة لكتابة قصة قصيرة، وأعلم أن القصة كما يقولون أصعب من الرواية. ولكن حساسيتي برصد بعض الشخصيات في الواقع لا يمكن أن تكون إلا داخل عالم روائي منحني الشجاعة لأحلم بفعل ذلك.

فجأة أجد نفسي متورطة داخل مشهد لا يمكن أن يكون إلا في رواية، بل حين تأملت مايحدث حولي، انفصلت عنهم وصرت فوقهم تماماً ولقد داخلني إحساس قوي بأنني أتابع مشهداً من فيلم سينمائي يحتاج إلى مخرج موهوب ومحترف.

إذاً دعوني أصف لكم هذه البداية، إذا كانت موفقة سأتابع الكتابة، وكأنني أتأمل كل ما يحدث بعدسة المخرج التي تلتقط بحساسية وصدق كل ما يجري.

الوقت: السادسة مساء، المكان: مطبخ واسع في بيت يسرا، الحدث: بهيجة تجلس على كرسي متكئة بمرفق يدها على الطاولة الخشبية المربعة الشكل الملتصقة من أحد جوانبها بالجدار، على الكرسي الثاني المقابل جلست الشقرا تمسك هاتفها قريباً من فمها وتهمس فيه، بينما (يسرى) تعد القهوة.

أربع نساء في المطبخ، لكن الصمت يسود المكان أغلب الوقت، أليس غريباً أن تجتمع أربع نساء ولاتسمع أصواتهن الحادة المتداخلة، أوثرثرتهن وضحكاتهن المرتفعة، أو حتى جدالهن حول الأزياء وبرامج الفضائيات والمسلسلات الدرامية؟

جلست ملتزمة الصمت، عبقت رائحة القهوة في أرجاء المكان، سكبتها يسرى في الفناجين ولم تقدمها، تناولت فنجاناً وأخذت أرتشفه بصمت، ثم تبعتني بهيجة، فيما يسرى تعود للاتصال من جديد، تطلب رقم هاتف زوجها، كانت تنظر إلى الساعة المعلقة فوق الباب،و سمعتها تقول له:

- وصلت إلى المطار حبيبي؟

ثم تصمت قليلا وتتابع بعدها:

- جيد، الوزن؟ جيد، لاتنس أن تبلغ تحياتي إلى شقيقتك. أخبرها بأنني سأطمئن على صحتها غداً عندما تصل.

أقفلت الخط، سحبتني من يدي إلى الصالة حيث طاولة الطعام، كان الهدوء في المنزل غريباً لم أعتد عليه، سألتها عن الأولاد، أجابت:

- الشقرا أخذتهم إلى المنتزه العائلي.

ثم أردفت:

- أريد منك خدمة هذه الليلة، كما ترين الشقرا تريد أن تلتقي صديقها هنا في بيتي.

رمقتها بنظرة تدل على امتعاضها لكنها تابعت:

- هاهي تبتزني وتجعلني أسمح لرجل غريب أن يأتي إلى بيتي وينفرد بها.

كنت أصغي بانتباه شديد، أحسست أنني أصبحت جزءاً من مؤامراتها دون أن تستأذنني. توقفت وهي تسترق النظر إلى المطبخ وتابعت من جديد:

- أرسلت في طلب بهيجة لتبقى هنا وتنام مع الأولاد لأنني سأمضي ليلتي في حضن كمال.

تأملت أمارات دهشتي وتجاهلتها، من جديد استمرت تشرح لي:

- أريد منك إما أن تأخذيني بسيارتك أو تعيريني إياها وسأعيدها في الصباح الباكر، فقط هذا ما أطلبه منك؟

كان ردي سريعاً ومباشراً:

- لا، لا يمكن، انسي الأمر تماماً.

- أرجوك.. لماذا؟

كان عقلي يدور ويلف خلال ثوان بأكثر من مليون لفة، يحاكم ويشير، وينصح، لأمنحها إجابة واحدة وهي:

- لا، لا يمكن، يسرى.. سيارتي يعرفها الكثير من الذين لا أعرفهم، ولاتنسي أولاد زوجي، ثم إنني غير موافقة، لا أريد لك هذه المغامرة، من أجل من؟ ولماذا؟ أما وعدت نفسك أن تقطعي علاقتك الغريبة بهذا الرجل؟

توقفت عن المتابعة دون أن أجرؤ على نعته بالمنحرف ولست متأكدة من أن هذه الصفة تنطبق أيضاً على علاقتهما العاطفية، هذه اللقاءات التي تقسم يسرا أنه لا يقترب منها أثناءها، ولا يمارسان الجنس، فقط «المشي فوق السرة».. في تلك اللحظة لعنت فضولي والرواية التي أطمع في كتابتها، أنا التي منحت يسرى الثقة لتبوح لي بأسرار هذه العلاقة التي لمحت مراراً لغرابتها، وهي مازالت غير مصدقة كيف يفعلان ذلك الجنون معاً.

رنين هاتفها وانسحابها للرد عليه سمح لي بإعادة النظر وأختار بين أن أكتب قصة هذه المرأة أو أن أطردها من حياتي مرة واحدة!

لم أكن أفكر بمثالية عالية وبالقيم الأخلاقية التي تحرم تلك العلاقات، لطالما اعتبرتها شأناً خاصاً، ولست مخولة بإقامة الحدود على مرتكبي الخطايا، تسامحي ربما لايكون نبيلاً بقدر ماهو استشراف مستقبلي يمكن أن أندم عليه لما يمكن أن أرتكبه من أخطاء.

عدتُ إلى الجلوس بجانب بهيجة، سألتها:

- ألم تأت (سومة)؟

لم يكن هذا اسمها، كانت تدعى (سمية) وهي امرأة مطلقة منذ أكثر من

عام بعد زواج قصير نسبيا اتسم بالعنف الشجار والضرب والغيرة، سنوات من العذاب أمضت نصفها تحاول الحصول على ورقة حريتها: الطلاق.

سمعتني يسرى أسأل عن صديقتها الغائبة، تقدمت مسرعة نحوي وهمست لي:

- إنها لا تعرف شيئاً عن هذا الموعد. أرجوك إنه سر.

ابتسمت وقلت:

- ماشاء الله.. سر؟ نحن الأربعة نعلم!

تذكرت الجارة (هدى) التي تسكن الدور الأخير وسألتها:

- وهدى؟

هزت رأسها بإيماءة غامضة لا هي نعم ولا هي لا، ومضت ترد على الهاتف بعيداً عنا، ثم عادت لتجدني أتهامس مع بهيجة، لكننا قطعنا همسنا ونظرنا إليها، وأشارت بيدها أنها تريد محادثتي على انفراد.

كان كل ما يجري حولي من رنين هواتف وهمس جانبي ومنفرد يشعرني بأن الجو متوتر، وبدورها لم تخف ارتباكها، بل كنت أراها تفتعل مزيداً من الإثارة في حركاتها وردودها لنشعر جميعاً بأننا غارقون معها في هذه المؤامرة.

أستطيع أن أفهم أن من تخون زوجها تفعل ذلك بصمت شديد، تتوتر، تقلق، تخاف، تخطط، تنفذ كل ذلك بنفسها دون أن تشعر من حولها بما يدور.

لماذا تصر هذه المرأة على الدراماتيكية لهذا الحدّ؟ تسحبنا معها إلى أجواء لا يمكن أن تحدث إلا بين فتيات مراهقات عندما يتفقن على مغامرة الخروج في رحلة مع أصدقائهن، وهي، بين وقت وآخر، تشير إلى أن أبقى إلى جانبها، وأحياناً تأخذ رأينا علناً حول إمكانية نجاح أو فشل ما تسعى إليه:

- هل يكون المسافرون الآن في صالة الانتظار؟

- هل أخرج الآن أم أنتظر صعود زوجي إلى الطائرة؟ لا لا.. الأفضل أن أنطلق إلى لقاء كمال بعد أن أجد هاتفه مقفلاً.

كانت تحدث نفسها بصوت مرتفع على أمل أن تحظى برأي مساند من أي منا. تنظرُ من جديد إلى الساعة المعلقة على الجدار فوق الباب ثم تسألني فجأة:

- هل تتأخر الطائرة المغادرة إلى دمشق في العادة؟

- لا أعرف. لم أسافر إليها ولا مرة.

تتأوه بصوت مسموع، ثم تنحني قليلاً مقتربة بوجهها مني، وتهمس:

- تعالي إلى الصالة.

خرجت من جديد إلى الصالة، كانت بهيجة والشقرا قد دخلتا في نميمة جعلتهما غافلتين تماماً عما يجري، وكأن لا أحد يشاركهما المكان، وعدتُ أجلس إلى طاولة الطعام، وجلست يسرا في مواجهتي وقالت:

- تصوري:. أخبرتني بهيجة اليوم بكل ماتقوله هدى عني، وحتى هذه الشقرا و...، توقفت ترمقني بنظرة ذات مغزى ثم تابعت:

- وأيضاً قالت إن الكاتبة لم تكن تستلطفك كثيراً، لكن لم تنتقدك أمامي ولامرة.

أجبتها على الفور:

- سبق لي وصارحتك بهذه الحقيقة، وتعلمين تماماً بحقيقة مشاعري نحوك.

هزت رأسها بالموافقة، مررت أصابعها متخللة تسريحة شعرها الجميلة، نفضت خصلاتها، أمالتها نحو الأسفل ثم عادت ورفعتها إلى أقصى ماتستطيع خلف رأسها، وقالت:

- لا أعرف سر بهيجة هذه الليلة، أقصد أمس منذ أن طلبت منها المبيت عندي لم تمانع كما في كل مرة، رفضت تنظيف المنزل، فقط جلست تثرثر حول مايقال من وراء ظهري وكأنها تريد أن تسافر إلى غير رجعة، شعرت أنها تودعني..

انظري إليها، حاولي من هنا تأملها، هاهي الشقرا تتكلم معها وهي لا تجيب ولا تبالي.

- نعم.

أجبت باختصار شديد لأنني أعرف أن بهيجة في الغد أو بعد غد سترحل في قارب إلى إيطاليا.

وكنت متأكدة أنها الآن قد قالت للشقرا كل ماكان يدور خلف ظهرها، تمنيت ألا تكون قد أشعلت فتنة كبيرة بينها وبين زوجها، وبينها وبين يسرى، لأنها لوفعلت ذلك سأمضي أياماً مبتعدة عن هذا المكان، ثم تذكرت أن إنذار إخلاء العمارة لم يترك لنا مدة طويلة.

وبنفس الوقت فإنني أكره سماع شكوى يسرا من إحساسها بالمرارة لعدم إخلاص صديقاتها بمن فيهن سومة التي لم تأت هذا المساء!

هذه المشاكل تحدث يومياً بينهن، بل هي خبزهن اليومي، وإذا اجتمعن معاً لمدة أسبوع دون مشكلة ما فهذا يعني هدوءاً يسبق العاصفة.

صار المطبخ والصالة وغرفة الجلوس التي يفصلها جدار قصير عن الصالة الأماكن التي تدور في أرجائها يسرا، الكراسي تذهب وتأتي في حركة تتواءم ومزاجها، الطاولة انسحبت مبتعدة عن جدار المطبخ، لاشيء في مكانه، أصوات النساء، رنين هواتفهن المزعج لاينقطع، همسهن المتواصل...

تقف يسرا قبالتي، ترمش عيني، تحل الشقرا محل يسرا، أتلفت إلى يميني فأرى بهيجة، أحرك رأسي نحو اليمين واليسار، ألتفت مرة ثانية فأجد يسرى.

تؤرقني الأسئلة للمرة العاشرة: لماذا أنا هنا؟! كيف وافقت على الاستمرار ومشاهدة هذه اللعبة؟ الآن تنفجر من رأسي الإجابة حاسمة:

- حتى تكتبي الرواية عليك الاكتفاء بما عرفته عنهن جميعاً، أما ما تبقى فدعي خيالك يكمله ويملأ فراغاته.

أبتسم في سري عندما أتذكر تلك الوريقات ذات اللون الأصفر التي دفعتها يسرى أمامي ذات مساء، أخبرتني عن ولعها بالكتابة والخواطر تحديداً، وأن ما تكتبه تقوم بكتابته في الحمام عادة، وهو المكان الوحيد الذي لا يمكن لزوجها مطاردتها فيه أو أولادها الشياطين، تكتب خواطرها في الحمام بلغة مرمزة، وتحاول أن تشرح لي تلك الإنشاءات والاقتباسات من روايات قرأتها وأعجبت بها، تتحدث عن تلك الاستعارات ببساطة شديدة ودون خجل أو تأنيب ضمير، فمن سيحاكم امرأة مجهولة تكتب خواطرها في الحمام، وتقتبس من كبار الكتاب جملاً أحبتها تلصقها بجمل لكاتب آخر، وهكذا؟ المهم عندها أنها كتبت نصاً يترجم أحاسيسها ومشاعرها لحبيبها كمال أو نصاً يفضح علاقتها بوالدتها، على أن يكون مبللاً بالدموع والآهات.

قرأت عليّ أكثر من ورقة وطلبت مني أن أستعين بها إذا قررت كتابة رواية عنها، وأبدت استعدادها لمصارحتي بكل ما تفكر به أو تفعله، تريد أن ترى قصة

حبها التي لا تشبهها قصة أخرى مكتوبة في رواية.

وعدتها، وكنت صادقة بأنني سأعيد صياغتها لها، على أن تروي لي قصتها وأكتبها لها، وأخذت عليها وعداً بأنها إذا قرأت الرواية ولم تجد حقيقتها فعليها عدم مراجعتي بالأمر، انفرجت أساريرها وبانت سمات الرضا والسعادة على وجهها، يسرى امرأة لا يسهل إرضاؤها، تحب الظهور والاستعراض إلا أنها تتحول في حضوري إلى تلميذة مطيعة تقبل رفضي بحب كما لو أنني أقدم لها نصيحة مفيدة.

## الكاتبة ويسرى

«عندما تشعر أنك تحب أحداً
لا يمكن أن تفكر بالحرية أبداً»

يرن هاتف يسرى، اتصال جديد من زوجها، يخبرها أن موعد إقلاع الطائرة تأجل حتى وقت غير معروف.

تنظر نحوي متسائلة:

- ماذا أفعل؟ كمال يستعجلني؟!

يرن هاتفها مرة أخرى، لاينقطع عادة عن الرنين، تحمله متأففة من الرد، كان أحد عشاقها. بصوت لئيم تجيبه:

- نعم، امممم.. يامنير زوجي مسافر هذه الليلة، غداً أتحدث إليك، أريد أن أذهب إلى السرير باكراً.. ثم تقفل الخط:

منير هذا الرجل الذي كان شاباً يسكن بجوار بيتهم عندما كانت صغيرة، أحبته، لكن والدته رفضت أن يتزوجها، منير أصبح الآن خاضعاً تماماً لابتزازها المادي لتمنحه على حد زعمها قليلاً من الوقت على الهاتف وبعض اللقاءات البريئة والقصيرة، في تلك الأثناء يرن هاتف الشقرا فتجري نحو يسرى وتهمس في أذنها، أحدث نفسي قائلة: كم هي غبية! نجلس معها في المطبخ وغرفة الاستقبال المفتوحة على الصالة بانتظار لقائها مع صديقها ولا تريد لنا أنا وبهيجة الاطلاع على سرها، لكن يسرى قد أخبرتنا بالأمر.

تسرع يسرى بإغلاق الباب علينا للحظات ريثما تستقبل الأخرى الصديق أو العشيق ثم تعود إلينا معتذرة، تطلب منا تجاهل الأمر وتدعي أنها خائفة من عودة مفاجئة لزوجها.

سألتها: لماذا ترضخين لابتزازها؟

أجابت بمواربة وكذب واضح:

- لأنني طلبت منها أن تأخذ أولادي إلى النادي حتى إذا اتصل والدهم من المطار لن يخبروه حقيقة مايجري في البيت!

في الواقع لم أفهم هذا التبرير السخيف. هي والشقرا تتبادلان الخدمات العاطفية لتضع كل واحدة الأخرى في كفة الخيانة الزوجية، وترجح كفة الإخلاص لصداقتها، وكأن لسان حال الواحدة منهما يقول: ((لاتعايرني ولا أعايرك، الهم طايلني وطايلك».

يسرى تفضح أسرارها وأسرار الجميع، ثم تطلب منهم الصمت وعدم البوح بها، وإذا حدث وانكشف خيط واحد يؤدي إلى فضح سر ما نتيجة زلة لسان إحداهن، يحدث الانفجار النسائي المعتاد بسيل من التهم المتبادلة، وغالباً ماتحتفظ بعتاد من الأسرار يمكنها من تهديد من تسول لها نفسها بفضحها، بداية من هدى وزواجها السري، لكن بهيجة استخدمت كل ماتعرفه ليصبح

سلسلة من المفاتيح تملكها لفتح أي باب مغلق في وجهها، واقتنعت أنها تحولت من خادمة إلى سيدة نفسها.

وحدي أعلم أنها عزمت على الهجرة، ثم راودتني شكوك بأن هناك من قدم لها مساعدة مالية كبيرة، سألتها:

- هل تعلم يسرى بسفرك؟

هزت رأسها بالنفي، كانت أقل الخادمات ثرثرة عما يخصها شخصيا، تستمع أكثر لما يدور حولها وكأنها غير معنية بالأمر، ثم تصبح فجأة طرفاً رئيساً فيه.

منذ الساعة السادسة مساء وأنا أشرب القهوة وأرقب مايدورهنا حولي، لست طرفاً فيه لكن يسرى تصر على إقحامي، هل تلعب معي تلك اللعبة النفسية التي تجعلني شاهدة أو حتى متورطة في ذنبها؟ ما أشرسها من امرأة! بالرغم من رفضي مازالت تحاول تكرار طلبها من جديد.. تقترب مني قائلة:

- أريد أن أذهب بسيارتك إلى (السوبر ماركت).. دقائق وأعود.

رفضت تسليمها المفاتيح ووافقت على مرافقتها في سيارتي، حتى أنا أحتاج بعض الأغراض، حاولت تصديقها وهممنا بالخروج. توقفت لحظة وسألتها:

- الشقرا هنا.....؟

سحبتني من يدي وخرجنا، كان المحل قريباً لايبعد أكثر من مائتي متر، اتصل زوجها.. نظرت إليّ خائفة وطلبت مني إطفاء محرك السيارة، ثم أغلقت النوافذ جيداً، كل هذه الترتيبات حتى يعتقد أنها في البيت، تكلمت معه برقة شديدة وأدركت أنه يدخل إلى الطائرة وهي تستعد للإقلاع، كانت الساعة تقترب من التاسعة والنصف.

أغلقت الهاتف وطلبت مني أن أكمل السير إلى بيت كمال، لم أتكلم معها. عدت بسرعة إلى العمارة، أوقفت المحرك وأمرتها بالنزول.

- هيا.. لاوقت لدي ولن أقوم بهذه المهمة.

أحسست بأنني خذلتها بشدة، ولو كنت مكانها لعبرت عن ضيقي، لكنها لم تعترض ولم تبد تبرماً مني، بل قالت لي:

- سأخبرك بما يحصل، سأكون عندك غداً صباحاً ونتناول القهوة معاً.

صعدت إلى بيتي، كانت الشقة باردة وهادئة، زوجي سافر بالأمس أيضاً، حاولت الكتابة عن أي شيء يخص ما أخبرتني به سابقاً، عن حياتها وعلاقتها المرتبكة بوالدها ووالدتها التي لاتزورها.

منير، زوجها، كمال وآخرون لا يمكن أبداً أن أتذكرهم، الأهم منهم جميعاً السيد عبد المجيد. أمضيت ساعات طويلة من الشعور بالقلق والإثم والفضول، مرت عليّ لحظة تخيلت خوفها مما هي قادمة عليه، ارتعدت خائفة خوفاً حقيقياً وكأنني من سيرتكب هذه الحماقة، أقول لنفسي: ها أنا أصبح شريكتها بعد اطلاعي على سرها، ولم أثنها عن عزمها بصدق، نشأ صراع مؤلم في

داخلي بين المرأة المفترض أنها صديقة مخلصة وبين المرأة الكاتبة المجنونة التي تبحث عن قصة تكتبها.

بين الإثم والفضول سكت ضميري تماماً واقتنعت بحفظ سرها بل ونسيانه تماما، سأكتمه فليس بمقدوري إشعال الفتنة وتحمل نتائجها، ولست مسؤولة عن شرف النساء المهدور.

أخذت أوراقي إلى السرير، ضغطت أزرار جهاز التحكم وتابعت قناة الجزيرة، ولم أصح إلا على رنين الهاتف، نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً والمتصل هويسرى:

- نعم. كان صوتي سكراناً بالنعاس، بينما صوتها الهامس يبدو صاحياً تماماً.
- عُدتُ إلى البيت قبل ساعتين، اطمئني، حدثت أمور غريبة جداً.
- خير.. ماذا حدث؟
- نامي الآن، سأخبرك مع فنجان القهوة.

أقفلت الهاتف ولعنتها ولعنت وعدي لها بكتابة رواية عنها، من هي؟ سألت نفسي من جديد.. من هي حتى تحملني كل هذا الهم والقلق والإزعاج؟ وكيف استطاعت أن تسيطر على حياتي؟

لطالما نظرت إليها على أنها امرأة تافهة وأن تكن جميلة، بل وجذابة بمعنى أدق، لا يمكن أن يفلت أغلب الرجال من سحرها، والدليل من أعرفهم على الأقل؛ عبد المجيد لايشبه منير، ومنير لا يمكن أن يشبه زوجها، أما كمال فهو مختلف عن الجميع.. وآخرون يدخلون في حياتها وينتهون وربما لايخرجون تماماً بل ينامون في ذاكرتها إلى حين، ثم فجأة يستيقظ اسم واحد منهم.. تناديه فيلبي النداء دون تردد.

هذه المرأة تمتلك مواهب متعددة، كان يمكن أن تعمل ممثلة وتخرج كل تلك الطاقات الكامنة فيها فتريحنا وترتاح، هي القادرة على أن تحول حفلة عيد ميلاد صغيرة إلى مسرح استعراضي ترقص فيه على كل إيقاع مبرزة مفاتنها ومهرجة لبعض الوقت، تغتصب الضحكات من أكثر الوجوه عبوساً في الدنيا، تغني وتنفعل وتلقي النكات البذيئة جداً، وأحياناً تسخر من الحاضرين دون أن يشعر أحدهم بالإهانة، وربما ضحك معها على نفسه، لا.. لا يمكن أن أصفها بالمرأة الجميلة، لكنها تمتلك كل مقومات الجمال من ملامح وجه غريبة، إلى تناسق القوام. ومع ذلك تبقى تافهة كما عرفتها أول مرة في بيت هدى التي قالت عنها قبل أن ألتقي بها ذات مساء: هذه المرأة علينا اتقاء شرها منذ البداية، وإلا تورطنا فيها.

لم تكن هدى ترحب بزيارتها المتكررة كل صباح، حيث تنتظر خروج عادل بعد مراقبة تستمر لوقت يزيد أو ينقص عن ربع ساعة عن موعد خروجه إلى عمله، تراقبه وهو ينزل الدرج إذا كان المصعد معطلاً كما في أغلب الأيام، أو إذا سمعت صرير حباله الصدئة وهو يتحرك نحو آخر طابق بجوار شقتها.

لا يمكن لهدى أن تتهرب منها لأنها تعرف سرها، وتلتقي مع صفاء الزوجة

الأولى التي لاتنقطع عن زيارتها لبيت صديقتها المفضلة؛ الزوجة الثانية هدى دون أن تدرك أنها تجلس مع ضرتها..

شبكة من الأسرار لو فضحت ستنهار بيوت كثيرة، ولطالما اشتدت الأزمات النسائية بينهن، إلا أنها لم تصل حد فضح سر زواج عادل بهدى، كنت على يقين من أن هذا التواطؤ الغريب مرده إلى أن تستر إحداهن على الأخرى، هو تستر على سرها الخاص حيث يسود بينهما مبدأ المعاملة بالمثل.

تتداعى كل هذه الأفكار والصور وأنا مازلت في السرير، حمدت الله لغياب زوجي الليلة، وإلا كنت سأخضع لاستجواب حول اتصال يسرى المتأخر أو المبكر كثيراً! وعادة لا أجيد استخدام الخيال، فخيالي يتوقف عن العمل في مثل هذه المواقف، فكرت لو أن يسرى وقعت في مأزق مشابه، ماذا يكون ردها؟ تأتي الإجابة سريعة: ستدعي أن صديقتها في مأزق عائلي أو أنها تعرضت لوعكة صحية، ولا أحد معها يواسيها، ابتسمت وهنأت نفسي عندما وجدت الحل السريع بمجرد تبادل الأمكنة، هناك فائدة من توطيد العلاقة معها فهي تعلم فن الكذب والخروج من الارتباك في مواقف صعبة!

الساعة تجاوزت الخامسة، والعتمة في الخارج ازدادت في آخر أيام الصيف وبداية فصل الخريف، نهضت متثاقلة الخطوات أمشي باتجاه المطبخ، شعرت بلسعة برد خفيفة، كانت النافذة المطلة على البحر مفتوحة، من بعيد تبدو أبراج ذات العماد بإنارة حمراء على سطحها، حركتي المتباطئة لن تنشط إلا إذا أعددت القهوة بالرغم من هاتف (يسرى) الذي طرد كل آثارالنوم من جفني.

«أجمل ما في الصباح أنه موعد جميل نحتفي بإعداد القهوة من أجله، أو أن القهوة تحتفي بالصباح لا أدري؟ كلما بدأت في طقوس إعدادها صباحاً، تلك التي تبدأ بسكب الماء ووضع ملاعق البن، قدح الموقد للاشتعال، انتظارها حتى تغلي وتطلق رائحتها، سكبها بالفنجان، يبدو أنه أمر اعتيادي وبسيط، لكنه يحمل متعة في إعداد المشروب الذي يدعوني لإيقاظ كل حواسي دفعة واحدة.

فعل اليقظة يضاهي في لذته متعة الدخول في عالم الاستسلام للنوم الكامل، اليقظة نهضة من موت وشيك، والنوم استسلام للعتمة والمجهول الذي لامفرمنه.

كل صحو يترافق مع فنجان قهوة دعوة للحياة والصخب، لهذا لا يمكن أن أفكر في لحظة ما بالانصياع لرغبة طبيب يمنعني منها، أو نصيحة إرشادية للتخفيف من تناولها، فنجان القهوة صباحاً يحمل جناحين أحلق بهما عالياً مع أول رشفة، يخفف من غضبي وتوتري وقلقي، هذا مالا يمكن أن يدركه أي ناصح أو طبيب..

وهذا الفجر القادم بطيئاً بأنواره الشحيحة، وإزعاج يسرى بكلام مبتور لا يمكن أن يسيطر عليه سوى عشرة فناجين من القهوة!

فكرت بإعادة الاتصال، وتراجعت لأن صوت يسرى لم يشعرني بالاطمئنان، لهذا ذهب خيالي نحو الأسوأ، أعني عودة زوجها أو عدم سفره أصلاً، وربما كان

السفر مجرد فخ نصبه لها ليتثبت من شكوكه الكثيرة حول سلوكها.. قصة شكه تلك يمكن أن تصيب أي امرأة بالجنون إلا زوجته، رغم مرور أزمات كثيرة والاقتراب من حافة الطلاق، إلا أن هذا الزواج استمر لاكثر من سبعة عشر عاماً دون أن تتهاوى دعائمه، غير أنه قائم بلا دعائم حقيقية، هي شبه متأكدة من شهوته إقامة علاقة حميمة بصديقتها التي تكاد لاتفارق بيتها، سومة المرأة المطلقة، وقد يدفع هذا اليقين أو حتى مجرد الشك أي امرأة نحو الجنون، مع هذا تؤكد بأنها واثقة منها، ثم تعترف أنها لاتثق بزوجها (غراماً واحداً) على حدّ تعبيرها.

أجدها أحياناً متبرمة ومتأففة من سومة وعندما أسألها لماذا لاتقطعين علاقتك بها تجيب بأنها لا يمكن أن تمنعها من الدخول، فهي تعرف الكثير عن حياتها وأسرارها وتخشى أنها لو سببت لها إهانة يوماً ما أن تخرب بيتها.

- وأنت أيضاً تعرفين الكثير عنها!

- أعرف فأنا التي رافقتها إلى تونس لترقيع غشاء بكارتها قبل أن تتزوج بأسبوعين، لكنها تعشق ناجي وتحبه وتنتظر أن يتزوجها، لاخوف منها على زوجي.

كم هي متينة علاقة الصداقة بينها وبين الشقرا وهدى وبهيجة أيضاً، حزمة من العيدان مربوطة بخيط رقيق اسمه الخوف من الفضيحة، مازلت أغرد خارج السرب حتى وإن كانت يسرى على علم ومعرفة بالسيد عبد المجيد فهذا ماض ونسيته.

لم يتسن لي الوقت كثيراً لمزيد من الأفكار السيئة، إذ سرعان ما أشرق الصبح، كانت السابعة صباحاً حين رن جرس الباب، أسرعت إليه، فتحته دخلت يسرى ووجهها ينبيء عن ليلة مضنية، تمشي متمايلة وكأن كل قطعة في جسدها تتناثر في اتجاه ما، سألت عن القهوة ولم تنتظر، دخلت المطبخ وأسرعت لإعداد القهوة، للمرة الثانية بدأت بالكلام قبل أن أسألها وهي تتأوه:

- آه لوتعلمين، بعد أن رفضت مرافقتي (قالتها بشكل بسيط بلا تكلف أو نغمة لوم وعتاب) انطلقت أقود سيارتي، تعلمين أن المسافة من هنا ـ تقصد عمارتنا المطلة على البحر- إلى بيت كمال في شارع جرابة طويلة، كنت أقود السيارة دون أن أنتبه أن هناك من يتبعني!.

قاطعتها:

- من، هل كان زوجك؟

هزت برأسها نافية ومتابعة:

- بل منير، هل نسيت أنه اتصل بي يفاوضني ويريد أن أحدد له موعداً؟ كنت أحاول استرضاءه والتحايل عليه، وعدته وقلت: زوجي مسافر هذا المساء وغداً سيكون الوقت متاحاً لي. وأعتقد أنه فكر بشيء ما لأنه صارحني بأنه منذ فترة يراقبني.

اخلتطت الأمور عليّ ولم أعد أفهم ماتقوله وكأنني أعلم كل شيء، طلبت

منها أن تروي بهدوء ماحصل، وبالترتيب.
جلسنا في الصالة وأخذنا نتناول القهوة، تابعت قائلة:
- تبعني منير بسيارته عندما رآني أقود في وقت متأخر ولم أنتبه له أبداً، كنت خائفة وأنت شاهدة طبعاً على خوفي.
أومأت لها بأن نعم، تابعت:
- حين وصلت إلى شارع جرابة لم أجد مكاناً مناسباً لركن السيارة إلا قريباً من عمارة كمال، شاهدني وأنا أدخل وحدي وانتظر حوالي نصف ساعة فقط، بعدها وصلتني رسالة على الهاتف، كانت من منير ويقول فيها «أخرجي الآن أفضل لك وله وإلا..... «. كانت تهديداً واضحاً، تصوري أن (كمال) هيأ لي ثلاثة أزواج من الأحذية ذات الكعب العالي، وكل زوج بلون وموديل يختلف عن الأخرى.
كنت قد أقسمت له أن هذه الزيارة ستكون الأخيرة، وأنني لن أمارس هذه الطقوس معه من جديد.
كانت تتكلم وهي متأكدة من أنني شاهدة صدق على كلامها، أحياناً تحاول تذكيري بقصة ما حدثت، أحاول جاهدة التفتيش عنها، وغالباً ما أثق بذاكرتي إلا أنني أعود بذاكرة مطفأة تماماً، أحدث نفسي في حينها أنه ربما لم أكن معنية بالأمرفي ذلك الوقت ولا بأهميته أو تفاصيله، لكنها تتوقع مني على الدوام أن أشبه المعجبين بها، وأنها محور يرتكز عليه جميع من حولها، لهذا أختصر على نفسي المجادلة وأهز رأسي موافقة، وهي تتابع بسرور لعدم مقاطعتها:
- تعرفين كمال، لحق به الشك وسألني من يكون هذا؟
كذبت عليه، قلت هذا أحد جيراننا ورأى سيارتي وها هو يراقبني.
لكن كلامي لم يقنعه أبداً وأجابني:
- وما شأنه بك؟ ابقي هنا، لن يعرف أين أنت ولا مع من.
جلست أقرأ له ماكتبت على أوراقي، تلك الأوراق التي قرأتها عليك وأعجبك أسلوبي فيها.
في تلك اللحظة قاطعني وصول رسالة ثانية يقول فيها: ((الأفضل أن تغادري الآن فأنا أعرف مع من أنت،.....». تملكني الخوف، كان علي أن أتصرف وخطر لي حل سريع، اتصلت على الفور بهدى، أخبرتها بما حصل معي، طلبت مني أن أنتظرها في الشقة عند كمال نصف ساعة...
وعادت للتأوه، أمسكت رأسها بيديها وعادت تستحضر مشاعر ليلة الأمس وتعيد تمثيل ماحدث من قلق وانتظار، من عاداتها ألاتروي قصة دون تمثيل بالحركة وتقليد للأصوات، هذه المرأة التي تعشق تأدية كل الأدوار في الحياة، الفتاة الشقية الفاتنة والزوجة الصالحة والأم الحنون والعشيقة المجنونة والصديقة المخلصة والأخت الناعمة الغيور، تريد أن تعطي كل ما عندها من طاقة، وبالمقابل تريد من الحياة أن تمنحها كل شيء بأكبر قدر ممكن.

وإذا عاندها القدر تحتال عليه، تبذل كل مافي وسعها لتنال ما تريد، وترى أنه حق لها حتى لو وصلته، وهي مكسورة محطمة، لايهم كيف الأهم هو الوصول.
تابعت تروي ماحدث:
- بدأت الاتصالات بيني وبين هدى تتواصل، تخبرني أنها في الطريق إليّ، ثم حينما اقتربت من شارع (جرابة) ركنت سيارتها في شارع خلف عمارة كمال، ثم تسللت بهدوء وهي تمشي محنية ظهرها متخفية وراء هياكل السيارات المتوقفة على جانب الطريق إلى أن وصلت باب العمارة وصعدت على السلالم، اتصلت بي وطلبت مني الخروج فوراً.
وقفنا على أعلى درجات السلم، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، قالت لي:
- عليك أن تخرجي وتظهري أننا كنا معاً ونركب السيارة ثم ندور حول الشارع مرتين أوثلاث، بعد ذلك نذهب إلى المكان الذي أوقفت به سيارتي.
كنت متوترة وغير قادرة على مناقشة هدى بما تطلبه مني، أدرت محرك السيارة الذي كان بارداً، لم أنتظر طويلاً.. انطلقت ويداي تمسكان بالمقود وكأنه سيهرب مني في أي لحظة، رن هاتفي فأسرعت هدى للرد على منير، تكلمت معه بلهجة قوية حاسمة، بادرته بالسؤال: ماذا تريد؟ لماذا تفعل ذلك بيسرى؟ ثم سمعتها ترد عليه قائلة:
- أنا طلبت منها مساعدتي.. تصمت قليلاً ثم يرتفع صوتها وتقول: كان لديّ طلب يخص أموراً عائلية، وأنا كنت عند كمال. ألم ترنا ننزل سوية إذا كنت تراقب مدخل العمارة بنفسك كما تدعي؟
أقفلت الهاتف وهي تعده بأن تتفاهم معه شخصياً في الغد.
نظرت إليها، ابتسمت وطلبت مني العودة إلى سيارتها، بحرص شديد وخوف كبير عدت إلى هناك، قبل أن أتوقف ألقينا نظرة فاحصة دقيقة على الشارع الخلفي، لم نجد أثراً لمنير أو حتى أي شاب هناك، هبطت هدى وقادت سيارتها وعدنا إلى البيت.
كانت أنفاس يسرى تتلاحق وهي تعيد تصوير ماحدث معها، سكبت لها كأس ماء، رشفت منه على دفعات وبهدوء، ثم نهضت وذهبت مباشرة إلى نافذة الغرفة، عدلت الستارة، ألقت نظرة خاطفة ثم عادت لتجلس على كرسي آخر، لا يمكن أن تهدأ حركتها لأكثر من ربع ساعة في مكان واحد. لدرجة أشك أنها امرأة متزوجة ولديها ثلاثة أولاد مراهقين يمكن أن تهتم لأمرهم، تجاوزت الأربعين بعام أو أكثر ومازالت تتحرك بحيوية فتاة في العشرين.
شعرت برغبة لمعرفة علاقتها بمنير، لم أره أبداً، أعلم فقط أنه ابن الجيران القديم الذي عاشت معه قصة حب كبيرة ورفضت والدته زواجه منها، وبقي متعلقاً بها حتى بعد زواجهما، قالت لي مرة:
- منير هذا يحضر ويغيب، أنا التي تستدعي حضوره كلما أردت منه مساعدة

مالية، ثم أجعله يختفي ويغيب، منير سيبقى مثل الكلب في حياتي.

قبل أن تخرج قلت لها:

- يبدو أن أحدنا عندما يشعر أنه يحب أحداً لا يمكن أن يفكر في الحرية أبداً.

# أمومة بهيجة

شكرت بهيجة الله أنها لم تقع ضحية النصب بعد أن اعتمدت سياسة الاحتياط والحذر من الغش والخداع بالرغم من جلوسها داخل هذا المركب المزدحم والمعتم، حاولت أن تكون أكثر تفاؤلاً لأنها نجحت بأن لا تقع ضحية من يسلبون الأموال من المهاجرين ثم يعودون بهم إلى الشواطيء الليبية بعد إبحار فاشل، ومنذ أن رأت أنها ستبحر في مركب صيد وليس في قارب مطاطي (زودياك) اعتبرت أنها حققت إنجازاً فرحت به.

لكن ما أزعجها هو عدد المهاجرين الذين تكوموا فوق سطح المركب، بينما دخلت معظم العائلات إلى جوفه الرطب المظلم.

لولا فضول البواب رضا لكانت أكثر راحة، مازال يلح عليها لمعرفة من تكون سارة، لن يهمها الآن فضح أسرار الآخرين فهي بدأت ذلك منذ يومين في بيت يسرى. شعرت أن عليها إظهار حقيقة كل صديقة للأخرى، بعدها تدعهم وشأنهم، يتعاركون، يتسامحون.. أو تنقطع العلاقة التي تسمى صداقة بينهم.

وحدها الكاتبة هي التي عرفت بعض التفاصيل عن سارة وقدمت لها المساعدة، وتريد معرفة كل شيء، عندما وصلت بتفكيرها إلى هذا الحدّ التفتت إلى (رضا) وأخرجت تلك الذاكرة المعدنية، وضعتها في جيب صغير تحت جلابيتها وقالت لرضا:

- سارة لم تكن ابنتي فعلاً، تمنيت أن تكون لكنه القدر والمعاملات الرسمية ما منعني وبصراحة خوفي من الاتهام بخطف الفتاة، لو فشلت تجربة الهجرة ستكون عقوبتي أكبر.

كان رضا يصغي باهتمام شديد على الرغم من هدير صوت المحرك المختلط بهدير الأمواج القريبة من السطح الخشبي شبه الغارق إلى منتصفه في ماء البحر، وصراخ أطفال خائفين ملتصقين بأمهاتهم، كان لاينوي مقاطعتها ولا يجرؤ في داخله على التفكير بأبعد من الاستماع إلى حكاية تنسيه خوفه من هذه الرحلة، محاولاً إظهار الشجاعة.

(رضا) الذي فقد زوجته في حادث سيارة بعد أن أكمل بناء بيته الصغير، بانتظار طفل يملأ حياته فرحاً. بكى كثيراً كما النساء وساعده جميع سكان العمارة بثمن تذكرة ليسافر إلى مصر، هناك وجد نفسه أكثر وحدة وأكثر بؤساً فعاد إلى ليبيا بعد أن باع البيت الذي ظل لسنوات يجمع ثمنه من عمله بواباً للعمارات، سمع مثل غيره بالمهاجرين الذين أصبحوا أثرياء في أوربا فحزم أمره وقرر أن يخوض التجربة.

كان المركب حتى تلك اللحظة داخل الحدود الإقليمية. حدث فجأة هرج كبير، وتدافع بعض الرجال يحاولون الصعود إلى السطح، أوقفهم رجل عراقي شاب وقد سد عليهم المنفذ المؤدي عبر السلم القصير.

- ياجماعة واحد يصعد فقط.. وأدار ظهره وبخفة صعد يجري، بعد دقائق عاد وأخبرهم أن هناك اشتباهاً في القارب من قبل خفر السواحل، وقد جرى إطلاق بعض الرصاص، لكن القائد أرسل إشارة أنه قارب صيد ونجح مبدئيا في الهروب.

دبّ الرعب في قلوب من انتبه؛ لأن الآخرين استسلموا للنوم، كل واحد اتكأ على كتف الآخر، وبعضهم وضع حقيبة صغيرة تحت رأسه وحاول ثني ركبتيه بسبب الازدحام.

قالت بهيجة (لرضا):

- الله يستر، لو كانت معي سارة الآن لأصابني الجنون.

كان على استعداد لأن يتجرع قصص بهيجة حبوباً مهدئة وعلاجاً للنسيان، نسيان الماضي دفعة واحدة، طلب منها أن تتابع. تنهدت، فهي أيضاً أشد حاجة منه للتطهر من الماضي، وقالت:

- بعد أن خرجت من قصر السيد عبد المجيد بحثت عن عمل وسكن، وخطر لي أن حسنا السكرتيرة المغربية التي تعمل في إحدى شركات السيد يمكنها أن تجد طريقة لي لأعمل عاملة نظافة في إحدى الشركات التي تعرفها.

اتصلت بها، رحبت بي وتعاطفت معي كثيراً وبناء على رغبتها انتظرتها عند مدخل بوابة الشركة، عندما انتهى الدوام الرسمي رأيتها وهي تهم بركوب سيارة صغيرة قديمة لكنها جيدة، حملتني معها إلى سكنها وطلبت مني أن أساعدها في تنظيف بيتها، بعد أيام عرضت عليّ أن أبقى معها وأعمل في تنظيف بعض بيوت أناس تعرفهم ومنهم السيدة هدى، ومن خلالها تعرفت على بيوت أخرى في العمارة ذاتها، وفي غيرها.

بدأت حسنا تغير نمط الحياة الذي تعيش به، اشترت أثاثا جديداً لمنزلها الصغير، ثم سيارة حديثة، وأخذت ترتدي كثيراً من الثياب الجميلة، كانت كريمة معي أيضاً.

في البداية كانت شكوكي تذهب نحو السيد عبد المجيد وقلت لنفسي: ربما تكون عشيقة جديدة له.

ثم أخذت تطلب مني مغادرة البيت في أوقات معينة وبحجج واهية، كنت أراها امرأة فاتنة وأخشى عليها من الأذى، ولاسلطة أملكها تمكنني من مناقشتها فهي التي تفضلت عليّ وأغدقت العطاء.

في أحد الأيام عادت إلى البيت في وقت أبكر من المعتاد، كانت عيناها منتفختين من البكاء، في لحظة الضعف تلك أخبرتني أنها حامل وأن والد الجنين يطلب منها السفر إلى تونس لتجهضه.

صعقني الخبر، لكنها قالت إن الطفل من زواج شرعي غير مثبت في أوراق رسمية، وأن والده ليبي ومتزوج، وأخذ يعاملها بشكل سيئ منذ علمه بهذا الحمل.

لم تعد حسنا تخرج إلى العمل، بدأت أنفق عليها وأحاول ردّ بعض الجميل

حتى أنجبت هذه الطفلة وأسمتها سارة، بعدها بشهر أخبرتني أن والد سارة سيعود إليها ويتزوجها بشكل رسمي وطلب منها أن تسافر معه أسبوعاً إلى تونس، وضعت بعض النقود في يدي وحملت حقيبتها وذهبت، لم تمض أيام أربعة حتى فوجئت ذات صباح بالشرطة تطرق الباب وتبدأ باستجوابي عن حسنا وعن كل شيء أعرفه عنها، فهمت أنها الآن في السجن متهمة بقتل رجل، كانت هذه أكبر الكوارث، التي وجدت نفسي في مواجهتها.

تغيرت تعابير وجه رضا، بدت عليه ملامح الدهشة والخوف، شعرت بجفاف حلقها وأخرجت زجاجة الماء البلاستيكية وتجرعت منها، وبحذر شديد وكأنها تخشى عليها أن تنفد.وسألها (رضا):

- كيف قتلت الرجل؟ ولماذا؟ أمازالت في السجن؟

هزت بهيجة رأسها نافية موضوع القتل، وكأن ذلك يكفي رضا ليقتنع ببراءتها، ثم، وقبل أن يفتح فمه بالسؤال تابعت:

- لم تفعل، بعد أسبوعين فقط خرجت، فقد كانت تهمة ملفقة من قبل الرجل الذي أنجبت منه الطفلة، أراد توريطها فقط، لم تكن لها أية علاقة بالأمر.

- وبعدين، ماذا فعلت؟

- استمرت تربي سارة وأنا معها حتى بلغت عامين، وفي أحد الأيام حزمت حقائبها وأخبرتني أن والد سارة يهددها لو بقيت هنا، وأنها ستلقى مزيداً من المشاكل، لذلك قررت أن تسافر إلى المغرب لمدة شهرين وتعود بعدها سراً وتغير مكان إقامتها، أعطتني مبلغاً كبيراً ورحلت، وحتى هذا اليوم لا أعرف شيئاً عنها.

همّ رضا بفتح فمه ليعلق لكنها قاطعته متابعة:

- سارة بدأت تفهم أنني لست أمها الحقيقية، وباءت محاولاتي بالفشل لتسجيلها بشكل رسمي ابنة لي لأنني غير متزوجة، ذهبت إلى دار تعتني بالأطفال الذين لا آباء لهم وتركت لهم كل البيانات والمعلومات عنها، ودعتها وبكيت كثيراً لكنني وعدتها بالعودة قريباً.

قالت ذلك بهيجة ومسحت دموعها التي انهمرت وهي التي لم يتخيل رضا أن لها مثل هذا القلب الحنون، لم يكن ذلك ذنبها فملامح وجهها حادة جداً تنبيء عن امرأة قاسية، بالإضافة إلى قوام جسمها الضخم، كما أنه راقب معاملتها الحازمة لسارة أكثر من مرة.. رآها في أحد الأيام توبخها بقسوة لأنها سبقتها وراحت تجري في الطريق الرئيس الموازي للعمارة، ربما كان خوفها الكبير كان يدفعها أحياناً لتأديبها، لكنها لم تكن تمشي – غالباً- إلى أي مكان إلا وسارة رفيقتها.

لم يكن رضا يملك أي كلمة يواسي بها بهيجة فبكى معها، أو هكذا اعتقدت، بينما كان يبكي زوجته الشابة الحامل التي قضت قبل شهور في حادث سيارة بعيداً عنه.

# بهيجة العرافة

نظرت بهيجة إلى ساعة يدها تحت الضوء الشحيح، تبين لها أن الوقت الذي مضى لايتجاوز الساعة من الزمن. قبل أن تبحر في المركب اعتقدت أن الوقت سيمضي لو تحررت من تلك الذاكرة اللعينة، من الماضي كله دفعة واحدة، إلا أن مرور سارة استنزفها في تلك اللحظة تماماً. الحديث عنها متعب لقلبها، تمنت لو استمرت تتحدث مع نفسها وتلك الذاكرة المعدنية عن الآخرين، ثم اكتشفت أن أولئك الذين تسميهم آخرين هم جزء من الوقت الذي مضى.

الماضي بالنسبة لبهيجة يبدو الآن بعيداً أكثر مما تخيلت، تحاول استعادة تفاصيله لكن الذاكرة لا تريد أن تطيعها، بهيجة في قرارة نفسها تشعر أنها امرأة تحب الحياة، لهذا تمسح من ذاكرتها كل المرارة والتعاسة التي مرت بها، ومع ذلك سألت نفسها أكثر من مرة: ما الذي يدعوها أحياناً للانتقام ممن ظلمها أو جرحها؟ هذا الشعور كان يلازمها في اللحظة التي تعرضها للقهر ويستمر لأيام، بعد ذلك تنساه تماماً حتى تستمر أقوى، وهذا ماجعلها تنتصر في أكثر من تحد، عندما تمكنت من تحويل علاقتها بالسيدة زوجة عبد المجيد إلى علاقة صداقة، وليس علاقة سيدة بخادمة، إذ طالما أبدت تلك الزوجة قلقها على مصير زواجها وشكوكها بإخلاص زوجها، فيما بهيجة تمنحها الطمأنينة بعد أن تعلمت من امرأة مغربية كيفية قراءة الطالع بواسطة (الكارتة). إنها إحدى حيل الوهم عن طريق (ورق اللعب)، رسمت عليها رموزاً وصوراً، وكانت ترتبها وتصفها مقلوبة، ثم تقوم بفتحها من جديد. وكلما فتحت ورقة تتأمل قليلاً ثم تنظر إلى وجه السيدة وتبدأ بقراءة الرموز حسب ما تقوله الصور، فعلت ذلك في ليال كثيرة، واستمالت انتباهها وهي تحكي لها عن أسرار كثيرة لا يمكن أن يعرفها أحد. كسبت ثقتها بسرعة كما كسبت مبالغ إضافية من المال غير راتبها الشهري، لم تكتف السيدة بلعبة قراءة حظها، طلبت من بهيجة أن تسافر إلى المغرب وتتعاون مع عراف، منحتها إجازة أسبوعين ومبلغاً ضخماً وطلبت منها حجاباً يمنع زوجها من محبة امرأة غيرها، ضربت بهيجة على صدرها وقالت:

- ربط؟

أجابتها: نعم اربطيه عن كل نساء الدنيا ليبقى عاجزاً.

لم ينتبها الإحساس بالذنب وهي تكذب عليها، فكلما تقوله من أسرار عرفته وتعلم به علم اليقين لأن السيد عبد المجيد كان يستعين بها وبخدماتها كلما دعا أصدقاءه إلى مزرعته. وهناك كان يثمل ويتكلم عن مغامراته بفخر مع أصدقائه، وهي تسترق السمع إليهم وتفهم مايدور وتملأ الفراغات بدورها من خيالها، وتحكي لزوجته ما تريد أن تسمعه ناصحة إياها بالبحث في مكتبه وداخل أدراجه عن زجاجات عطور ملفوفة ينوي تقديمها لعشيقته، وتضع بعض الحقائق التي تعرفها عن صفقة قادمة مجزية وعقد فشل في التوقيع عليه، وأن

هناك أعداء يتنكرون بشكل أصدقاء، ويحاربونه. تصدقها السيدة لأنها تسمع بعضا من هذا الكلام الذي يخص عمله طوال الليل من زوجها متهرباً من لحظة حميمة معها، سارداً لها مشاكله وقلقه ممن يقف في طريق عمله.

عادت بهيجة من المغرب تحمل أعشاباً كثيرة وحجاباً للسيدة يحميها من الحسد والعين الشريرة.

استمعت إلى مايدور من أحاديث بينها وبين صديقاتها المقربات وتجرأت أكثر من مرة، فنصحت السيدة بإبعاد الواحدة تلو الأخرى عنها، بعد أن أقنعتها أن لكل واحدة من أولاء السيدات غاية من صداقتها، إحداهن تعشق السيد عبد المجيد، وأخرى تحسدها، وثالثة تطعنها في ظهرها بكلام لئيم وسيئ.

أأصبح لكلامها وقع كبير في قلب السيدة الخائفة على زوجها وثروتها، وفرحت بهيجة بتلك الانتصارات، وأدركت أن سلطة امتلاك سر يجعل الأدوار تنقلب فتصبح هي السيدة. في البداية كانت تفعل ذلك لتثبيت نفسها في المكان فلايتم الاستغناء عن خدماتها، ثم، شيئاً فشئياً، صارت تشعر أن تلك السيدة التي تسامرها وهي وحيدة معها تعود سيدة متعجرفة في حضور صديقاتها، وتعود هي الخادمة المطيعة. صار الأمر أصعب عليها، وامتلكت مزيداً من الأسرار، اقتربت من السيدة أكثر، شعرت بالهوة تزداد اتساعاً مع كل لقاء يجمعهما بالغرباء، ازداد إحساسها بالعجز، تحول إلى انتقام، لعبت على التخلص من الصديقات فتحول الشعور من عدم الاستغناء عنها إلى شعور من يمتلك حصانة الأمانة والإخلاص، بل هي المنقذ أيضاً، دوامة تدور في فلكها بهيجة وسيدتها انتهت في لحظة واحدة.

«اليقين إما، أن نبحث عنه في الحياة أو يأتي هدية من القدر، بهيجة لم تجرؤ على البحث عن دليل، كانت تتمنى لو أن السيدة أرسلت إشارة ما، فإذا بالقدر يضعها في يوم متأخر في مواجهة الحقيقة. «.

# أسرار بيت هدى

رضا البواب ليس أقل من بهيجة قلقاً وخوفاً من هذا الرحيل على ظهر مركب صغير مزدحم بالمهاجرين، هو أيضاً يشبهها، له أسراره الخاصة وأطماعه وأحلامه، ويمتلك بضعة أسرار يتواطأ مع أصحابها من سكان العمارة من أجل أكل العيش، يفكر وهو يتأمل كل هذه الوجوه الساكنة حوله: كيف سيتدبر لقمة عيشه على شواطيء غريبة لايعرف لغة سكانها ولا عاداتهم.

في طرابلس كان عليه أن يصمت كل صباح وهو يرى عادل زوج هدى يتردد على شقتها، حتى وإن كان نائماً في غرفته الصغيرة أسفل العمارة، تعود عادل إيقاظه ثم مد النقود له، يطلب منه تنظيف سيارته وسيارة هدى، فيأخذها بأسارير منفرجة وشكر عميق، النقود أكثر من أن تكون أجرة لغسيل وتنظيف سيارة فيعلم أنها رشوة وثمن السكوت.

فجأة يتذكر الشابة الجميلة المهاجرة معهم، يبحث في عتمة المكان فلايتمكن من رؤية تفاصيل الوجوه، يحدث نفسه أنها لابد قد اختبأت في إحدى الزوايا المعتمة كما كانت تفعل دائماً، تعود أن يراها تأتي آخر الليل إلى العمارة، تجلس ممددة لأقصى مايمكن على كرسي سيارة الشاب ميلود العازب الثري، ينزل من سيارته ويتفقد باب العمارة ثم يشير إليها فتتسلل بهدوء، تطبق باب السيارة، يسبقها إلى شقته ومن النافذة يرفع ميلود يده بجهاز التحكم ليقفل سيارته، تدخل العمارة وتصعد السلالم بهدوء، ثم تدفع باب الشقة الموارب. لم يكونا يحتاجان إلى المصعد لأن شقته تقع في الطابق الأول.

لم يكن كريماً معه ولم يحاول رشوة رضا لكتمان هذا السر، تسربت أخبار علاقته تلك إلى الجميع، ومع ذلك لم يخش ميلود أحداً، بل إنه في صباح أحد الأيام التقى به أثناء تلميع سيارة عادل فأمسك به من كتفه وتكلم معه بنبرة قاسية مهدداً: - إذا سمعت انك تذكرني بسوء عني فسأقطع رزقك ولسانك.

الفرق كبير بين الرجلين، كل من يعرف علاقة الزواج الغريبة لهدى وعادل وزوجته الأولى صفاء التي أصبحت صديقة حميمة لزوجته الثانية، يتواطؤ على كتمان هذا السر عن صفاء، الأمر المحير أن زوجته الأولى وأم أولاده امرأة لاينقصها الجمال بل حتى بعد أن تجاوزت السابعة والأربعين، أخذت تبدو أصغر من عمرها بفضل عمليات تجميل صغيرة (حقن البوتكس، وشد الوجه والأجفان، وتصغير الأوراك)، وهوسها الكبير بأن يبقى شعرها الغزير طويلاً إلى مابعد منتصف ظهرها، وكأنها شابة صغيرة.

صفاء امرأة مهووسة بآخر خطوط الموضة والأزياء، تزوجت من عادل وهي في سنتها الجامعية الأولى، وكان شرط والدها الثري جداً أن تكمل دراستها، لكن عادل انتظر حصولها على الشهادة وحاول إقناعها بالتزام البيت، لم يكن ذلك صعباً عليه فقد كانت بطبيعتها تحب النوم إلى ساعة متأخرة، تعتمد على

الخادمة في أعمال البيت، تحب النزهات ومقابلة الصديقات، وبعد زواج دام خمسة عشر عاماً تعرف عادل على هدى. التقيا في الطائرة ضمن رحلة إلى تونس، جلست إلى جانبه، حكت له عن ظروف طلاقها وهجرة زوجها واعتنائها بوحيدها، وعائلتها الصغيرة المشتتة، هذه الظروف أغرته بعرض زواج سري.

تعلم هدى أنها تمتلك قواماً رشيقاً وتجيد الحديث والملاطفة، تجعل أغلب الرجال يطمعون بإقامة علاقة معها، رفضت كل أشكال هذه العلاقات ورضيت بزواجها السري من عادل.

عادل رجل أعمال ثري، كريم يغدق الهدايا على من حوله ولا يحب ارتكاب الخطايا، والقانون صعب التحايل عليه ولا يمكنه من الزواج بهدى دون موافقة الزوجة الأولى فأوجد حلاً يرضى به الدين ويحميه من الفضيحة في المجتمع. زواج غير رسمي ومع هذا كانت سلطة المال تجعله أكثر جرأة؛ لهذا أصرّ على أن تكون زوجته الأولى، بل حتى أولاده، أصدقاء لهدى وابنها ثم تصبح هدى الصديقة الوحيدة المقربة من صفاء، وتصير أسرته جواز مرور شرعي له إلى بيت هدى، فلا يهتم الجيران وكل من يعرف هدى بأن هناك علاقة بينهما، هكذا منحه ترددهم وسهرهم في بيتها منحه شرعية زيارة هدى في أوقات مختلفة دون إثارة الانتباه في البداية، وصفاء الهبلة كما أصبحت تدعى بين الجميع، راضية بصداقة زوجها عادل لهدى، بل هي مقتنعة بأن هدى متزوجة بشكل سري من رجل آخر.

## غواية المدن القديمة

تلك المدن القديمة التي تخبيء غوايتها داخل أزقتها الضيقة لا يمكن أن يطويها النسيان إلى الأبد، هذا ما حدث مع (الحارة).

الحارة- اسم المدينة القديمة في طرابلس، حيث تستلقي الشمس على ظهر أسقفها المهترئة بالحنين إلى ما كانت عليه قبل أن يتخلى عنها أهلها لسنوات بدت طويلة.

مدينة تناهز الكهولة عمراً، إلا أن زمناً أتى عليها فهجرها أبناؤها، كانت تتفقدهم كل صباح، تسأل عنهم الغرباء الذين احتلوا بيوتها، صارت حارتها وأزقتها الضيقة زاهدة بأبوابها الباهتة اللون ودكاكينها المقفلة على الفراغ.

طرابلس القديمة، جارة البحر مازالت تحمل رائحة بيوت الصيادين، وصراخ أطفالهم مازال يتردد صداه، حملوا حنينهم إليها بعد أن غادروها، أولئك الأطفال صاروا أدباء وفنانين، وشعراء وملاكي أطيان واقتصاديين، وليبراليين، وماركسيين وإسلاميين.

وهي من بعيد ترمقهم بعين الغريق... وحدهم الشعراء سمعوا أنينها، عادوا إليها ليرمموا زمناً مسروقاً منها، في ثمانينات القرن الماضي، كان الهم الوحيد لشاعرة أصابها هوس جميل هو إعادة التألق إلى سابق عهده، واندفع بعض من الفنانون التشكيليون يتسابقون معها لردم هوة الزمن، لهذا كانت وفية فأفسحت لمحترفاتهم مكاناً هناك.

هاهي تعود الحارة رويداً رويداً لأبنائها. استفاقت من نومها وأخذت كل صباح تربت على أكتافهم وترجوهم أن لا يقفلوا نافذتها المطلة على البحر بمزيد من ناطحات السحاب.

## الكاتبة تستجوب هدى

بيت هدى كان أشبه بخشبة مسرح. كل مساء هناك مسرحية جديدة أو دور جديد لبطلة جديدة من صديقاتها ومعارفها، صباحاً كانت تعقد الندوات النسائية حول فناجين القهوة لمناقشة ما دار في مساء البارحة، من هذا البيت تعرفت على كل الشخصيات التي تستحق كل واحدة منها أن تكون أو يكون بطلاً لرواية، بما فيها هدى التي جربت نشر بضعة نصوص في صحيفة محلية يكتب فيها القراء والهواة، ومازالت تحلم بأن تكون كاتبة، ولها عمود يحتل الصفحة الأخيرة في أهم الصحف الكبرى التي تصدر في الخارج. تدعي أنها تمتلك تحليلا عميقاً لما يجري على صعيد الحروب والأزمات السياسية الكبرى، وتعتبر مانشرته من أشعار في تلك الصحيفة مجرد مشاركة حتى لايغيب اسمها عن الساحة الثقافية، وتحتفظ بكراسات ممتلئة بالأخطاء الإملائية التي تفوق أخطاءها، وهي تكتب عن أثر الانتخابات الرئاسية في أمريكا ومايترتب عليها من كوارث في كمبوديا وجزيرة ألاسكا.

هدى تحب القراءة، وقد كانت مكتبتي تمثل إغراء كبيراً لإشباع هذه الرغبة، تطرق بابي يوماً بعد يوم وتشاركني فنجان قهوة، وتأخذ كتاباً ثم تعيده بعد أيام، قررت ردّ هذه الزيارات ومجاملتها.

أصبحت الأمسيات التي يتم الاحتفال بها بأعياد الميلاد مناسبة لتدعوني إليها، وعلى مدى سنتين راقبت علاقتها بصفاء وأبناء زوجها، كان ابن زوجها صديقاً لابنها وزميل له في الجامعة، يدرسان معاً ويخرجان معاً، فيما رأيت تعلق ابنة عادل المراهقة الجميلة المدللة بهدى أكثر من أمها صفاء، واستغربت أن تؤنب هدى الابنة المدللة بحضور والدتها على بعض الهفوات، وصفاء لاتهتز من شعر رأسها الطويل الكثيف أي شعرة!

منذ أن تعرفت على هدى صارحتني بحقيقة ظروفها وبأن عادل زوجها وحكت لي كيف عاشت فترة لابأس بها في تونس مع أمها بعد طلاقها من والدها، ثم عادت إلى ليبيا وتزوجت أول مرة، وانتهى زواجها بالطلاق وبابن وحيد، عملت في شركات عديدة، كانت امرأة تتمتع بالحيوية وتتقن اللغات الأجنبية، تقود سيارتها مثل شاب يهوى سباق السيارات ولكن باحتراف شديد، وتقول إن ما جذب عادل إليها هو مواجهة الحياة الصعبة وقدرتها على التصرف بحكمة، بالإضافة لما تتمتع به من رشاقة واستقلالية.

مع ذلك لم أفهم أبداً كيف يغار زوجها على صفاء ويتعامل معها وكأنها مازالت فتاة لم تختبر الحياة بعد، فيما يمنح هدى كامل الحرية!.

كانت صفاء النقيض لهدى، وتسعدها غيرة زوجها وتفخر بها، وتبالغ في إظهار دلال عادل لها، وبحضورهدى تصبح المبالغة على أشدها، وهذا مادفعني للشك أكثر، وصارحت هدى في أحد الأيام:

- اسمعيني، أنا لاأصدق أن صفاء لاتعلم بزواجك أنت وعادل!

لم يكن لديها يقين تام. لم تنفِ ولم تؤكد، بل قالت:

- هذه ملاحظة ذكية.

ثم تنهدت وتابعت:

- لو تعلمين كم يؤلمني مجيئها إلى بيتي، محبتها لي، هل تصدقين كم أتعذب من أجلها؟ هل تصدقين أنه لو أتى يوم وتأكدت صفاء من زواجي «بعادل» فأنا التي ستطلب الطلاق منه ومغادرة حياته تماماً.

- ألا تحبينه؟ ظننت أنك متعلقة به كثيراً وأنه ليس مجرد رجل يصرف عليك وعلى ابنك؟

أجابت بسرعة وكأن تلك الإجابة حاضرة على الدوام:

- أحب عادل، نعم وأكيد، لكن ليس بقدر محبتك أنت لزوجك، على الرغم من أنه سبق له الزواج من قبل.

حركت سبابة يدها باتجاه صدرها وتابعت:

- أنا أريد من عادل فعلاً أن يبقى الزوج الذي ينفق على بيتي، لا أخجل من ذلك لو صارحتك به.

أرجعت خصلات شعرها إلى الوراء ورأسها أيضاً، وأسندته إلى ظهر الكرسي وكأنها تتأمل سقف الغرفة. كانت تريد أن تحكي لي هذا الصباح أكثر من أي مرة سبق وتحدثنا بها، احترمت صمتها، كنت أجلس على الكرسي المقابل لها، لم ألحظ أن دموعها تنهمر بهدوء، ولكن فجأة أحنت رأسها والتفتت تبحث عن مناديل ورقية. سحبت منديلاً مسحت به دمعها وأنفها، كدت أعتذر لكنها أشارت بيدها أن لابأس.

نهضت واتجهت إلى المطبخ، رسمت ابتسامة واسعة وقالت:

- الحديث يحتاج إلى عصير وليس قهوة، بصراحة «جف حلقي «.

أحضرت العصير، تناولت كأسي فاقترحت علي:

- مارأيك لو نذهب إلى مقهى الآن؟

- الآن!

- أعرف أن عادل لايرغب كثيراً في خروجك إلى الأماكن العامة؟

هزت رأسها موافقة وقالت:

- أجل، ولكن إذا كان برفقتك عادي، تعلمين أنني لا أفعل في غيابه أي شيء لايرضى عنه أو يغضبه.

صمتت قليلاً وكأنها تتذكر أمراً نسيته وتابعت:

- أو نعمل جولة في السيارة على « طريق الشط «.

ابتسمت وأنا أتخيل قيادتها للسيارة وبدورها قرأت المعنى الساخر، أجابتني ضاحكة:

- إذاً نذهب في سيارتك وتخسرين ثمن البنزين.

كنت أشعر بضيق من جلسات الغرف المغلقة، لكنني حذرة من مرافقة أية صديقة إلى مكان عام، بالنسبة لهدى التي كان خروجها بحساب لا أمانع، أما يسرى والشقرا، فقد كنت أعلم من هدى أن نصف سكان طرابلس يعرفونهما، لطالما عبرت هدى عن استيائها الشديد مبدية امتعاضها من سلوكهما، ولكن هذا اليوم لم يكن لدي رغبة إلا بسماع هدى، أما يسرى فلم تكن تعني لي الكثير.

خرجنا من العمارة وكأننا نتسلل خوفاً وهرباً من خطر ما، وهذا الخطر يتجسد في يسرى التي لو رأتنا معاً لحشرت نفسها بيننا وقطعت علينا هذا الحديث الحميم. عندما أدرت محرك السيارة لم أضع هدفاً محدداً، انطلقت، كانت عمارتنا على يمين الطريق فيما البحر على يساره حيث تصطف مجموعة الفنادق المقابلة وأبراج ذات العماد يقابلها فندق كورنثيا الفخم.. حين تجاوزناه كنا نقترب من سور المدينة القديمة الذي تم ترميمه قبل سنوات، وأصبح داخل السور

ومقابل الميناء مجموعة من المطاعم السياحية والمقاهي، بعضها كان بناؤه يشكل نشازاً واضحاً مع معمار المدينة القديمة، والبعض حاول استعادة بعض من طرازها وفشل تماماً، عادة ندخل إليها من فتحة صغيرة تقابل الميناء تماماً على الطرف الثاني.

«هناك ينتصب قوس (ماركوس أوريليوس)، أقيم القوس الحجري له وهو الذي لم يأت إلى ليبيا في العصر الروماني ولا مرة واحدة.

يتألف القوس الحجري من أربعة أعمدة حجرية ضخمة، ينهض في أعلاها قبة حجرية حفرت على أعلاها نقوش، ومن الداخل تحت القوس تظهر النقوش في سقف تلك القبة. نبات السلفيوم الذي اشتهر في الجبل الأخضر، والذي قايض به الليبيون القدامى المصريين بما يعادله من النقود الفضية.

يبدو القوس منخفضاً عن الأرض المحيطة به لذا كان النزول إليه من خلال سلالم حجرية قديمة منحوتة، إلا أنها تعرضت للتهشيم ثم رممت فيما بعد بطريقة سيئة جداً دون أي اعتبار لقيمتها التاريخية، وأهملت مجموعة من الأعمدة الحجرية المنحوتة والمبعثرة قريبا من مبنى القوس، فبقيت دون وظيفة، إلا أنها تدل على تلك الحقبة من التاريخ.

إلى يمين القوس بناء حديث لنادٍ رياضي يحاذيه بضع محلات، أحدها لتأطير اللوحات الفنية، ثم مبنى قديم رمم وأصبح مقهى، وفي نهاية الشارع بيت مبني على نسق اندلسي أصبح فندقاً وسمي باسم صاحب البيت، واصبحت الغرف مكان إقامة، فيما الفسحة والغرف التي تقع في الدور الأول تحولت إلى مطعم ومقاهي.

خلف كل هذه الأبنية التي تقابل قوس ماركوس تقع مجموعة من البيوت والكنائس، بعض منها تحول إلى محترفات فنية، يقيم فيها الفنانون التشكيليون مراسم لهم، إلا أحد البيوت الكبيرة ويطلق عليه (دار الفقيه حسن) أعيد إصلاح بنائه وصار مكاناً للنشاطات الثقافية.

هذا الزخم من الأبنية العتيقة التي يرتادها الكتاب والفنانون، جعلهم يفضلون الجلوس في المقاهي والمطاعم القريبة من المدينة القديمة، وإذا عنً على بالهم تناول وجبة أسماك متميزة ذهبوا إلى (زنقة الريح)، حيث مطعم (عبية) الشهير المتخصص في تقديم وجبات أسماك مطهية بالطرق التقليدية، واشتهر صاحب المطعم بترحيبه بالزبائن وعقد صداقات مع غالبية الأدباء والمثقفين، وتقديم أفضل ما لديه لهم مفضلاً إياهم عن السياح الذين يمرون عابرين.

على يسار القوس بناء من العصر العثماني أصبح مقهى يحمل اسم القوس، وكان إلى عهد قريب مركزاً للشرطة، أما في العهد العثماني فقيل إنه كان سجناً. هذا المقهى أصبح مكاناً أثيراً لدى أغلبية الفنانين والكتاب.

منذ افتتاح المقهى وأنا أتحين الفرصة لارتياده لعلي ألتقي بكاتب كبير يدعوني إلى فنجان قهوة، أعلم أن وجهي واسمي ليس لهما حضور كبير في

هذا العالم الذي أحبه وأريد الانتماء إليه منذ زمن، بل منذ أن دخلت الصحافة عن طريق كلية الإعلام، ولم أجد وظيفة رسمية في أي صحيفة قدمت أوراقي ونفسي إليها. رؤساء التحرير بعضهم أعطاني فرصة صغيرة، وبعضهم أغلق الباب في وجهي فقررت أن أكون كاتبة، وعملت موظفة إدارية في الدار الوحيدة التي كانت تهتم بطباعة الكتب. أعمل في دار المطبوعات تلك التي أقفلت أبوابها، وانهارت قبل أن تغلق بأحد القرارات الإدارية، وخلفت وراءها أرشيفاً كاملاً من المخطوطات لكتاب كبار وصغار، بقيت مرمية بإهمال على الأرفف وفي صناديق كرتونية أتلفها تسرب المياه من النوافذ، أحسست وقتها أن من كتب هذه الأعمال لايهتم بها، نشرت أم لم تنشر، ولم يأت أحد منهم ليسأل عنها، وصار من حقي الاهتمام بها.

أخذتها وقرأتها، أصابتني دهشة كبيرة لأن كل ماكتب فيها لايمت إلى الحاضر بصلة، جميعها يغوص في التاريخ، لا أحد يفكر في التاريخ القريب حتى!

قلة هم من ذكر طرابلس بعبارة. هذه المدينة الرائعة المظلومة حتى من كتابها، يضنون عليها، يتناسونها قصداً أو عمداً. لا أدري، أعرف فقط أنني لطالما أحببت أن أقرأ لكاتب ليبي يتحدث عني وعن الآخرين الذين أراهم في الشارع، عن مطعم الأسماك في «طريق الشط»، عن أي مقهى يجلس فيه أولئك الكتاب، يتناولون قهوتهم ويثرثرون حول الثقافة والأدب، ينتقدون أو يشتمون بعضهم، ويرحلون بذاكرة شفهية، دون إمضاء أو ختم يشير إلى ملكيتهم الضائعة. هكذا في الهواء تتبخر كل أحاديثهم ونظرياتهم ويمضون.»

لهذا عندما دخلت مع هدى إلى مقهى (ماركوس) ابتسم أغلبهم لي، ظنت هدى أن هذا يعود لشهرتي الأدبية وليس لعملي السابق في المطبوعات.

النادل المصري يتحرك بين الطاولات وكأنه يعمل في إحدى المقاهي الشعبية في القاهرة، يحمل صينية عليها الطلبات، يهزها يمنة ويسرة متحاشياً أن تنفلت من يده، طلبت هدى " كابتشينو" وطلبت "مكياطة".

اخترنا الجلوس في الطابق الثاني الذي لايعدو كونه شرفة دائرية تقع فوق فسحة المقهى المفتوح على السماء، فيما الشرفة تطل على الميناء من إحدى الزوايا، ومقابلها تماماً نادي المدينة الذي يجاوره مبنى لمقهى يعاد ترميمه، ومن ذات الشرفة يمكننا الإطلال على بعض البيوت القديمة التي تحولت إلى مراسم فنية يعمل فيها فنانون تشكيليون. في المساحة التي تفصل الجهتين يتربع قوس " ماركوس أوريليوس" شاهداً على كل هذا الخراب والامتزاج بين حضارات بادت، لم يتبق منها إلا حجارة متناثرة، وحضارات تتمثل ببعض الأقواس التي تشكل العمود الفقري لهذه الأبنية، فيما أخذت الأبنية الطوبية المعاصرة تحتل الجزء الأكبر وتدخل في بقايا كل هذه الحضارات.

كان لابد من استعادة أجواء الصراحة والبوح لدى هدى، سألتها:

- تحبين صفاء من قبك بجد؟!

نظرت في عيني مباشرة وأجابت:

- نعم. عندما تزوجت عادل طلبت منه أن أبقى بعيدة عن بيته، حتى هذه اللحظة لم أفهم هذا الرجل، كان يتحين الفرص ويعرض علي مناسبة ما ليقدمها لي، رفضت عدة مرات، وفي أحد الأيام التقى بالمصادفة بشقيقي الذي يعمل بحاراً ويسافر كثيراً، يومها كان في إجازة، التقيا في المدينة أثناء التسوق وكانت ترافقه صفاء، دعاه شقيقي البحار فأتت هي وأولادها برفقته.

منذ زمن طويل وضع زوجته في زجاجة وأحكم إقفالها، أسعده أنها تحب التسوق وشراء المجوهرات وحضور بعض الحفلات، وأسعده أكثر أنها تنام إلى مابعد أذان الظهر، باختصار أحبها لأنها سطحية وتافهة فقط.

بعد تلك الزيارة توالت الزيارات واشتدت علاقتها بي. كان بيتي الوحيد تقريباً الذي تتردد عليه، وأصبحت تعتمد علي في كل كبيرة وصغيرة، فهي لاتقود سيارة ولايسمح لها عادل بذلك.

رشفت من فنجاني الصغير وقاطعتها أنوي استفزازها:

- هدى سامحيني بهذه الملاحظة، أرى أنك تحولت إلى خادمة لعائلته، تهتمين بشؤون ابنته وتسوًق صفاء وتعدين الولائم في بيتك لهم

لم تبد غضبها من ملاحظتي بل وافقتني قائلة:

- التميز ليس في تقديم هذه الخدمات بل في مستوى معيشتنا نحن الزوجتين، بيتي وبيتها، ملابسي وملابسها، مالا أملكه من مجوهرات وما تملكه هي؟ ولاتنسي أنها بالأصل ولدت لعائلة ثرية جداً.

وفجأة لاحت لي صورة صفاء في إحدى المرات وهي تحاول استعراض ما تملكه وغنجها وتدللها على عادل بحضورنا جميعاً، فحاولت تنبيه هدى وقلت لها:

- يلوح ببالي خاطر وأطرده كثيراً وسبق أن سألتك عنه قبل قليل.

- ماهو؟

- بما أن صفاء متأكدة من أنك زوجة عادل ولاتريد الاعتراف بذلك والإعلان عنه فهي تحاول قدر المستطاع الانتقام بطريقتها منك.

- هذا ماقاله شقيقي ذات مرة.

تابعت تحليلي للموقف:

- تعلمين ياهدى: لاشيء يمكن أن يكسر صفاء مثل خسارتها لعادل، وهي التي تقول إنها تعتمد عليه في كل كبيرة وصغيرة، كما أن زواجه بك يكسرها أكثر، وهي ابنة العائلة الكبيرة و... المرأة الحسناء التي مازالت تحتفظ بجمالها، كيف يمكن أن تعترف بهزيمتها، بل هي ترى من الأفضل أن تبقي الأمر سراً وتتمنى من الجميع أن لايعرف بزواجك من عادل، تريد أن تقهرك بما يقدمه لها من مال وأثاث وسفر تتميز به عنك.

وافقتني وقالت:

- ستكون غبية لو أنها لم تدرك ذلك، فهي تدخل غرفة نومي وحمامي وترى كل مايستعمله عادل، ماركة معجون الحلاقة وأنواع العطور الرجالية.. كل شيء. وصمتت قليلاً وتابعت وكأنها تذكرت شيئاً مهماً:

- في إحدى المرات كانت برفقته في رحلة تسوق، حدث ذلك بعد أن توطدت صداقتنا، وكان الشك يلاحقها بسبب بعض أولاد الحلال واتصالات تأتيها من فاعل خير، ولكنها دافعت عني وأنكرت زواجي بعادل، وأخبرتهم أنني متزوجة من شخص آخر لكنه يسافر كثيراً، في ذلك اليوم قال لها عادل:

- صفاء انظري، انظري هناك. وأشار إلى شاب ومعه فتاة تضع مساحيق كثيرة على وجهها، سألته:

- من هذا؟

فأجابها على الفور:

- زوج هدى.

واستغربت وجود صبية معه، سألته عنها فأخبرها أنها شقيقته.

ضحكت هدى وهي تتابع:

- وحالما وصلت إلى البيت اتصلت بي لتخبرني أنها شاهدت زوجي، بالطبع كان لدي علم بحيلة عادل فصدقت على كلامها وأكدت لها أنه زوجي.

انتهى فنجان (المكياطة) الصغير، طلبت آخر، كان الطقس جميلاً في تلك الشرفة، وأنا مستمتعة بتأمل ميناء طرابلس المزدحم ذاك الصباح بقوارب الصيد التي أخذت تتحول إلى قوارب تجمع ثروات من البشر وليس من صيد الأسماك!

بدأت هدى تشعرني بأنها قلقة لأن زوجها لم يتصل بها اليوم مثل عادته، وهي مشغولة عليه جداً. قلت لها:

- اتصلي أنت به!

- اتصلت. خطه مقفل. سأتصل بصفاء.

لاح على وجهها الاستغراب والتوتر أكثر وقالت:

- حتى صفاء هاتفها مقفل.. دعينا نذهب.

كان طريق العودة أطول؛ لأننا إذا ذهبنا نحو (الساحة الخضراء) أو كما تدعى (ميدان الشهداء) ومنها إلى شارع عمر المختار المزدحم سنتأخر، قررت أن نسير على امتداد طريق الشط الطويل جداً، حتى نصل إلى جزيرة دوران ميناء الشعاب، وافقت هدى المرتبكة دون مناقشة وعدنا، كانت أصابعها طوال الطريق لاتهدأ من الضغط على أزرار الهاتف الذي لايجيب.

## بهيجة والعاصفة

ارتفع الموج فجأة، اهتز القارب بشدة، أيقظ النائمين هروباً من الانتظار والخوف وارتعشت قلوب الصامتين الذين احتموا بجدار القارب الخشبي المنبعثة منه روائح طلائه الحديث مختلطة برائحة الوقود المعبأ في « غالونات»، وامتزجت بروائح بقايا الأسماك العالقة بالشباك القديمة، تلك الصفائح المعدنية صارت كراسي لبعض المحظوظين، هزة جديدة وميلان باتجاه اليمين كان أقوى من السابق، انزلق البعض بالاتجاه المقابل، صارت صرخات الخائفين المكبوتة - متحررة من خجلها- تشتد، الأصوات التي تحاول تهدئتهم تضيع وسط زحام الأشياء والضجيج والعتمة، ركاب السطح كانوا أكثر شقاء ورعباً، أصوات أقدامهم تبعث على الرعب لأولئك المختبئين في بطن القارب، كلما علا الموج وازداد اضطراب المركب ازداد الخوف والهلع، أخذ بول الأطفال والكبار الخائفين يتسرب نحو أقدام الجالسين على الأرض، هذا ماكان ينقص بهيجة في تلك اللحظة وهي تمسك بيد رضا الذي حصل على ملامسة جسد أنثى في أسوأ لحظة، لم تسمع بهيجة صوت القيء المنبعث من فم امرأة تجلس قريبة منها، ولكن رائحته انبعثت قوية جداً فضغطت على أنفها بأصابع يدها وتنفست من فمها.

أخيراً بعد وقت تجاوز نصف الساعة هدأ صوت المحرك تماماً، بعد أن تداولوا الأمر مع قائد الرحلة قرروا أن التوقف أسلم لهم ريثما تهدأ العاصفة التي لم تكن قوية بما فيه الكفاية لتجعل المركب ينقلب بمن فيه، قدر رضا أنهم في منتصف الطريق، وليطمئن رفيقة الرحلة. قال لها:

- هذا مركب كبير نوعاً ما وقوي، ليس مثل قوارب الصيد الصغيرة، لاتخافي لأن تلك القوارب تبحر أكثر من يومين لتصل الشواطيء.

أرادت في أعماقها تصديق هذا الكلام وتذكرت أن أم فرح بعد أن انطلق بهم قاربهم المطاطي بساعة واحدة فقط توقف محرك (الزودياك)، حاولوا تشغيله من جديد إلا أنهم فشلوا، وبعد محاولات استمرت لأكثر من ساعة عاد المحرك للعمل والإبحار إلى أن وجدوا أنفسهم يقتربون من شاطيء بعيد، وأنواره المشعة تبدو لهم طوق نجاة، وإذا بهم قد عادوا إلى شاطيء طرابلس وبالقرب منهم قارب خفر السواحل والأسلحة مسلطة عليهم وأوامر تلقى بمكبرات الصوت للتوقف والنزول.

حينها اكتشفوا خديعة الرئيسة وفهموا معنى كلمة الشاب الذي أدار المحرك وقال:

- اقرأوا الشهادة الآن على أرواحكم!

بهيجة في عز خوفها تحاول أن تجلب لنفسها بعضاً من الأمان واليقين لابد أنهم قطعوا المياه الإقليمية وإلا لتمت محاصرتهم من خفر السواحل كما حدث لأم فرح.

تلك المرأة التي وقعت ضحية عملية نصب ومثلها آلاف من الحالمين بالهجرة، ومع ذلك أعادوا الكرة ثانية وثالثة، ولم يوقفهم إلا الغرق أو الوصول.

قالت أم فرح يومها:

- كانت عودتنا سالمين لشاطيء طرابلس أجمل ماحدث لنا.

رغم أنهم لم يحملوا معهم أي وثيقة تدل على هويتهم ولاحتى بطاقة هواتفهم بعد أن أقنعتهم الرئيسة أن الإيطاليين سيخضعونهم للتفتيش الدقيق، وأرقام الهواتف تدل على مكان مغادرتهم، فيما خفر السواحل الليبي اعتاد التقاط الأحياء الذين فشلوا في الهروب، وجثث من فشل في الوصول.

وحدثتها عن سعادتهم الكبيرة وهم ينقلون بسيارة الشرطة، وكيف كانوا يضحكون ويتذكرون الأفلام الكوميدية، وفرحتهم بالنجاة حتى وإن دخلوا بعدها السجن لمدة أسبوع كي تستكمل معهم إجراءات التحقيق اللازمة، أما الأفارقة فكانوا يرحلون إلى بلدانهم، بينما الأسر العراقية تسجل في مفوضية اللاجئين لتأمينهم وضمان معيشتهم.

لهذا كانت بهيجة أكثر سعادة لو نجحت في الهروب، فعودتها تعني ترحيلها إلى المغرب من جديد. وبدا أن حركة المركب نتيجة لتيارات بسيطة لاتستدعي كل هذا الخوف.

قال أحد الجالسين بقربهم:

- هذه ليست (نوّة) وإلا لكان الأمر خطيراً.

سألته بهيجة:

- كيف تعرف ذلك؟

أجابها:

- في النوّة يتحرك المركب نحو الأعلى والأسفل، ومهما كان كبيراً إذا كانت النوةّ قوية سينقلب، وما هذه إلا تيارات بحرية.

عاد المركب يسير بأسرع من قبل، كانت قد مضت عليهم أكثر من ست ساعات من الإبحار، ومن تحمل رائحة بقايا الأسماك العفنة العالقة بالشباك وما جدّ من روائح كريهة أخرى.

فكرت بهيجة بأنها لحظة حاسمة في حياتها وقاسية أكثر مما كانت تعتقد، لقد مرت فيما سبق بأوقات عصيبة كانت فيها وحيدة مطرودة من عملها مع مكافأة مالية وضعت على طرف طاولة الطعام في صالة بيت السيد عبد المجيد، حملتها دون أن يكون لها حق السؤال عن سبب الاستغناء عن خدماتها، ولوقت طويل اعتقدت أن سبب طردها هو عملها في بيت شقيقة السيد عبد المجيد أثناء غيابهم في إجازة، والسيدة لاتخفي كراهيتها لشقيقته وغيرتها منها أيضاً، لكن قبل سفرها بأيام عندما صارحت هدى بما تحكيه يسرى والشقرا عنها، ورأت أن كلامها ليس له ذلك الأثر الكبير لدى هدى خلافاً لما حدث مع يسرى

التي حين علمت بأن هدى أيضاً لاتحمل لها وداً صافياً، أثارت زوبعة عاصفة من الشتائم، وبكت قائلة:

- إنها غير محظوظة أبداً من صديقاتها النساء، فيما الرجال يخلصون لها أكثر منهن جميعاً.

في ذلك الحين أخبرتها هدى بأنها على معرفة وثيقة بالسيدة زوجة عبد المجيد وأنها تعرفت عليها عن طريق حسنا أم سارة، وعلمت بأن بهيجة كانت سبباً في فتنة أوقعتها بينها وبين أعز صديقاتها، وحالما اكتشفت الأمر قررت طردها في ذات الحين، فهمت الرسالة من هدى وكان رداً مباشراً على سلوكها وطريقتها في نقل الكلام بين الصديقات.

شكرت الله على عدم حقد هدى في تلك اللحظة عليها، وعلى أن الليبيين لا يشعرون من يخدم لديهم بأنهم من درجة أقل، بل عليها الاعتراف أن السيدة التي تجاوزت الحواجز الاجتماعية والطبقية بينهما، كان على بهيجة أن لاتكون أنانية معها وتفرط في أحلامها لتكون الصديقة الوحيدة لها.

أما مع نساء العمارة فقد كان تجاوز ذلك الحاجز الوهمي أسهل بكثير. لم تجد صعوبة أبداً في كسره، فهي تجيد عرض خدمات إنسانية ونسج علاقة اجتماعية بعيد انتهاء خدماتها المأجورة، وحين وصلت بأفكارها إلى هذا الحد انتبهت إلى اقتراب جسد رضا منها. أحست بآهاته المحمومة وأنفاسه الحارة قريبة من أذنها على الرغم من غطاء الرأس السميك، انزاح جسدها مباشرة بلا تفكير وابتعد عن جسد رضا الذي كاد يلتصق به. لم تكن هي صاحبة الإرادة بل كان جسدها يشمئز من هذا الالتصاق، شعر بحركتها تلك، حاول أن يستجمع قواه لينفي عن نفسه تهمة التحرش المقصودة، فهو فعلاً كان يحتاج في تلك اللحظة لجسد أنثوي، لايهمه بهيجة أو غيرها، ولم تكن قد مضت على الخطر المحدق بهما أكثر من ربع ساعة، وسرعان ماتذكرت كلام نساء العمارة حول نظراته الشبقة التي تبدو فيها الرغبة والشهوة، وكيف حاول أكثر من مرة ملامسة أجسادهن أثناء حمل الأغراض إلى المصعد أو السلالم، بل إن يسرى قالت:

- تصوروا.. (رضا) البواب يسألني عن عمري!

ضحكوا جميعاً منها وأعربوا عن دهشتهم وهي تشرح وتمثل لهم نظراته الممتلئة شبقاً.

« كانت فرصة جديدة (ليسرى) لتسرد تاريخ حظها البائس من الذين أعجبوا بها وهي فتاة صبية حتى رسا بها القدر عند زوجها الذي لم يملأ قلبها وعينها أيضاً حتى هذا اليوم.

من عادتها الإسراف والمبالغة في كل شيء، تماماً مثل رسام الكاريكاتور أو المهرج على المسرح، وراحت تستدعي أولئك الذين أعجبوا بها، حتى أولئك الشبان الذين يعاكسونها في الشارع، واكتشفت أنهم أصحاب عاهات، فذاك

أعرج والآخر مهبول أو أكتع، ولم تلتق برجل وسيم يتحرش بها، وفي أحد الأيام كانت تسير برفقة والدتها في شارع عمر المختار، حين أخذ يطاردهما شاب وسيم جداً لدرجة أذهلتها، أشارت إلى والدتها تنبهها، وأبدت بعض اللين ومنحته ابتسامه مراوغة، اقترب منها وقد شجعته تلك الابتسامة ليتكلم معها بالإشارات وهو يبتسم، وانفجرت ضاحكة تسخر منه:

- كان أصم... آه هذا حظي!.

هذه هي (يسرى)، بالرغم من سخريتها القاسية لا يمكن أن يكرهها أحد دائماً، ولا يمكن لأحد أن يعرف قصصها وحكاياتها الكثيرة لكثرة وجوهها ومزاحها أيضاً.»

***

مزاج البحر هادىء، بعد الاضطراب خلف لهفة في الأجساد المرتعشة للالتصاق بعضها ببعض، والالتصاق أثار مشاعر مختلفة تأتي من ماض بعيد ثم تدنو إلى الحاضر الراهن، دوامة بحرية تحمل رائحة الأسماك المتفسخة مختلطة برائحة الأقدام المتسخة والبول الذي لا يمكن أن يجف في قعر المركب، ودخان السجائر الملتوي. شعرت بهيجة بالغثيان الشديد والنعاس، الإرهاق والتفكير بالرحلة جعلاها قلقة، لم تنم منذ يومين، عقلها يرفض الاستسلام لهذا السلطان كما الخوف يرجح كفة الصحو في ذلك الجو الخانق الكريه ويبعث الشعور بحريق يلتهم أجفانها، مع اهتزازات المركب الشديدة من كل اتجاه تأرجحت بين كل تلك المشاعر.

« تهيأ لها أنها ترى فجأة بجانبها حقيبة، حاولت أن تتذكر متى حملتها، ومتى كانت لديها حقيبة تفتح بالأرقام؟ تشبه حقيبة يحملها السيد عبد المجيد، تذكرت أن الحقيبة تعطل قفلها ذات يوم وأنها كانت مرمية في مكان ما، حاولت التأكد مما خطر لها، سحبتها إلى حضنها وعبثت بأرقامها، انفتحت فجأة.. مدت يدها وهي نصف مفتوحة، أخرجت رزمة نقود، عادت يدها إلى داخل الحقيبة مرة أخرى وأخرى، وفي كل مرة كانت تظهر رزمة جديدة، كان للحقيبة مخابيء عديدة. نظرت إلى ما جمعته، ارتبكت وهي تحاول إحصاءه ولا تريد لأحد من حولها أن ينتبه إلى كنزها الثمين، ألقت نظرة إلى يمينها فإذا بكل شيء يتبخر من حولها، وفي لحظة واحدة فهمت من نظرات رضا أنها غفت وكل ما رأته مجرد حلم «.

بهيجة خلقت امرأة طموحة، تعلم أنها لا تمتلك جسداً أنثوياً جذاباً، إنما في داخلها تحمل أحلاماً أكبر مما تملكه من إمكانات لتحقيقها. هذا ماظنته لسنوات طويلة، ثم قررت أن تخلع ثوب الخادمة دفعة واحدة، فهي أذكى من أن تبقى على الدرجات السفلى لسلم المجتمع، قررت ذلك بلا تردد: أن تكون لها حياة جديدة في مدينة لاتعرف فيها أحدا ولا أحد يعرف ماضيها، على الرغم من أن عملها المضني وفر لها دخلاً جيداً إذا قارنت ذلك بالماضي البائس في المغرب،

هذه هي هجرتها الثانية، في الهجرة الأولى حملت معها ماضيا مزيفا إلى ليبيا، قالت إنها ابنة عائلة غنية وأن شقيقتها طبيبة في فرنسا، وإن.... وإن..... كذبت حتى لاتشعر بالذل، وأختها في فرنسا التي تعمل موظفة استقبال في إحدى المصحات الخاصة تشجعها على المضي في الهجرة، وفي الوقت ذاته تصارحها بأنه لايحق لها دعوتها لأنها لم تحصل على الجنسية الفرنسية بعد، في الهجرة الأولى حملت معها الماضي الذي أرادته والذي لاتريده، أما الآن فكل ماتريده هو مسح هذا الماضي وكل مايمت إليه بصلة حالما تصل الشاطيء المقابل.

كانت هذه الذاكرة المعدنية التي تحملها هي آخر صلة لها بالماضي، تريد أن تجرب تفريغ ذاكرتها التي ولدت بها، وتنقل كل مافيها إلى الذاكره المعدنية وتبدأ مستقبلاً جديداً ترسمه وتخطط له كما تشتهي وتحلم.

في تلك اللحظة أحست وكأنها وصلت إلى كل ماتتمناه، راودها شعور بالانتصار، انتقلت مشاعرها إلى أعلى نقطة من الأحاسيس التي تفجر لحظة ضحك أو بكاء، وكانت دموعها أقرب، ارتبكت مثل مراهقة صغيرة تبكي وهي تريد أن تضحك، بهيجة بلغت الخامسة والثلاثين، لكنها وقبل أن تصعد إلى المركب بقليل تشعر أنها عاشت أكثر من مئة عام، وفي لحظة تدفق مشاعرها أحست بأنها عادت شابة صغيرة مقبلة على الحياة.

# حياة هدى السرية

بعد عودتي مع هدى إلى العمارة صعدت إلى بيتها، وكان علي أن أرتقي السلالم بسبب عطل في المصعد، كنت ألهث تعباً حين تقابلت مع يسرى تنزل برشاقة وخفة وهي تحاول شد غطاء رأسها، بادرتني بالتحية والسؤال:

- مرحباً، هل خرجت برفقة هدى؟ أعتقد أن زوجها عادل يرقد مريضاً في المشفى.

صعقني الخبر، وأكثر من ذلك معرفتها بالأمر قبل زوجته. حاولت الاستفسار فأجابت دون أن تنتظر سؤالي:

- كنت في (السوبر ماركت)، التقيت ابنه فسألته عن أخبارهم وأجاب:

- والدي في (الكلينيكا).

- إن شاء الله خير.

حاولت أن أتابع سيري فلا أعطيها مزيداً من الوقت. علاقتي معها لم تكن تتجاوز لقاءات قصيرة في بيت هدى.

لم تجرؤ يسرى على متابعة حديثها، استمرت في هبوط السلالم وأنا أصعدها إلى أعلى، قررت أن لا أخبر هدى حتى لا أدع ظنونها تذهب أبعد من الحقيقة فهي لاتثق بتصرفات يسرى أبداً، بالرغم من أنني توقعت أن تقوم يسرى نفسها بالاتصال بها وإبلاغها.

انشغلت تماماً في أعمال المطبخ بعد أن اتصل زوجي وأخبرني أنه سيمضي الليل كله معي. في السابق كانت هذه الحياة تسبب قلقاً لي؛ ليس لأني الزوجة الثانية، كنت فضلت منذ بداية زواجي بقاء أولاده في بيتهم بعد وفاة والدتهم حتى لا أتحمل عبء مسؤوليتهم. زوجي المقتدر مالياً فضل هذا الحل واقترح أن يزورهم بين حين وآخر عندما يأتي إلى طرابلس، حين تأخرت في الإنجاب أصابني الإحباط، بينما تبين لي أنه أسعد حالاً مع هذه الظروف، مع ذلك سافرت برفقته للعلاج في الخارج، وعندما تبين أنني لا أشكو من علة، تناسيت مشكلتي.

رتبت مائدة الطعام، حاولت أن تكون الأطباق شهية، وجلست أقلب جهاز تحكم قنوات الشاشة، أخذتني غفوة قصيرة على الكنبة الوثيرة، لا أعلم كم مضى علي حتى أيقظتني يده تربت على خدي، نظرت إلى الساعة، كانت العاشرة ليلاً، نهضت من جديد لتسخين الطعام.

كنت أتحرك ببطء ورغبتي في النوم أكثر من السهر. اعتاد زوجي هذا البرود والصمت، وكأن ليس لديه وقت لمناقشة مزاجي المتبدل. لكنه فاجأني بقوله:

- أراك مشغولة البال. أقصد ربما حياتك المهنية أصبحت أكثر جدية.

ابتسم برضا واضح وتابع:

- عادي. إذا كنت سعيدة بالعمل فهذا أفضل بكثير.

ذهبت إلى فراشي وأنا على يقين أن مايشغلني هو إنجاز الكتابة أولاً، وليس أي شيء يتعلق بمسألة الإنجاب أو بحياة وعمل زوجي طالما هو ينفق بسخاء، تذكرت هدى، كدت أتصل بها لكنني تراجعت فالوقت قد تأخر.

استيقظت في التاسعة صباحاً، نهضت مسرعة، قفزت من السرير، وكأن موعداً هاماً فاتني، أحسست بنشاط مفاجيء، ربما لأنني أخذت قسطاً وافراً من النوم، لم أجد زوجي ووجدت على الطاولة صكاً موقعاً منه وإلى جانبه ورقة يبلغني بسفره لمدة عشرة أيام.

في بداية زواجنا كنت أشعر بالوحدة والضيق إذا سافر دون أن يبلغني أو يطلب مني مرافقته، حين وجدت أن غضبي لايؤثر كثيراً تغير سلوكه، واعتدت الأمر وشكرت الله أنني الآن لا أشبه الكثيرات من زميلاتي اللواتي يحلمن بالزواج ليل نهار، وضعت ورقة الصك في محفظتي. دخلت إلى المطبخ لإعداد القهوة، سمعت رنات الهاتف المميزة والخاصة برقم هدى، تذكرت أني بالأمس لم أهاتفها، ركضت نحو الهاتف، كان صوتها مجروحاً بالحزن وسألتني إن كان لدي وقت للحديث، ضحكت في سري وأجبتها:

- لابأس، لدي ساعة قبل أن أخرج لموعدي. نهاري مشغول بتغطية نشاط ثقافي.

شكرتني، ارتديت ملابسي، وقبل أن أخرج لمحت مجموعة المخطوطات وقد عبثت بها يد زوجي، تأملتها ببرود شديد ولم أحاول ترتيبها، وخرجت.

عندما فتحت الباب كانت أجفانها منتفخة والإرهاق ظاهراً عليها بشدة، استقبلتني بترحاب وهي تحاول إخفاء حزنها، تغلب فضولي على ما أحمله من نبل المشاعر لهدى وسألتها:

- سمعت أن عادل في المصحة.

انهمرت دموعها، ومسحتها بمنديل في يدها بنفس اللحظة، كانت رائحة القهوة الساخنة تعبق في الغرفة، سكبت فنجانين، قدمت لها واحداً وأخذت فنجاني، جلسنا متجاورتين على الكنبة والتفت بجذعي إليها مصغية، شكرتني على تقديم القهوة وقالت:

- بالأمس عندما دخلت من باب البيت اتصلت بي يسرى.. أبلغتني أن زوجي في المصحة.. شهقت، وعادت تمسح دمعة وتابعت:

- تصوري انشغالي وقلقي ولا أدري ماهي أخبار زوجي إلا من يسرى.

- لابأس، المهم كيف حاله الآن؟ هل ذهبت إليه؟.

صدرت آهة طويلة منها وقالت:

- نعم أسرعت إلى هناك، دخلت إلى غرفته، كانت حاملة أنبوب تغذية إلى جانب السرير والأنابيب مغروسة في وريده وهو نائم، وإلى جواره سرير ثان يحتله رجل طاعن في السن، وفي الطرف الآخرمن سريره يجلس شاب على كرسي، عندما رآني أدخل استأذن بالانصراف لنصف ساعة وطلب مني مراقبة

والده العجوز، جلست وحدي أبكي، كنت أنتظره ليصحو وأفكر بوضعي هذا، دخلت طبيبة، سألتها عن حالته فأجابتني:

- لديه التهاب حاد في المسالك، وأتوقع أن لديه حصاة في الكلية.

وخرجت. لم أكن أعرف ما إذا كانت صفاء أتت لزيارته أم لا؟ ولكن فجأة دخل شقيقها، كنت أعرفه تماماً لكنه لايعرفني، شعرت بالخوف لأن تأثري كان واضحاً ولن يقتنع أنني مجرد صديقة لعادل وزوجته. من محاسن القدر أن شقيقها يشبه أخته في الغباء، اعتقد أنني مرافقة للرجل العجوز فأخذ يسألني عنه وعن مرضه، ادعيت أنني ابنته وانسحبت بسرعة لأقف في الباب.

في الحقيقة كنت أخشى دخول الشاب ابن العجوز وافتضاح أمري، بقيت أكثر من عشر دقائق، كان عادل قد استيقظ وسمعت صوته يتكلم إلى شقيق صفاء وصمتت هدى قليلاً.

طلبت منها أن تستمر، كنت أحاول أن يبدو اهتمامي دعماً ومساندة لها وليس مجرد فضول لمعرفة ما يحدث، تابعت:

- عاد الشاب وطلبت منه أن يبقى معي قليلاً في الخارج، طلبت مساعدته، حكيت له إنني الزوجة الثانية المغلوبة على أمرها.

توقفت من جديد لتمسح دمعها، كان صوتها مقهوراً، أحسست بألمها وشكرت الله أنني زوجة ثانية في العلن وليس في السر. أستطيع أن أغضب وأفرح وأحزن متى شئت، يمكن لي أن أحبل وأنجب لا أن أجهض إذا ماشعرت ببوادر الحمل كما فعلت هدى عدة مرات، كل ماقالته هدى فيما بعد هو تفريغ لكتلة الحزن والعجز الذي تشعر به في مثل هذه المواقف.

كان عليها أن تبقى السائق الخاص لمدام صفاء أثناء مرض زوجها، تذهبان إلى المصحة معاً وتعودان معاً ولا يحق لها البقاء معه وحيدة.

بعد ثلاثة أسابيع توطدت علاقتي بهدى أكثر، حاولت أن أدعمها بصدق لهذا كان لابد أن ألتقي يسرى مرات عديدة فتكشف لي وجها جديداً لها، غير أنها المرأة التافهة التي تجيد إلقاء النكات والقيام بحركات التهريج.

## « من أوراق يسرى»

منذ شهور رغبت أن ألتقي الكاتبة في بيت هدى، كنت أسمع اسمها يتردد في أكثر من مكان، كانت تحظى بمكانة كبيرة لدى هدى، لم أفكر يوماً أن الكتابة يمكنها منح الإنسان كل هذا الاحترام وتحديداً المرأة، لم ألتق يوماً بكاتبة إلا على شاشة التلفزيون، أتابع حواراً مع كاتبة لمدة ربع ساعة ثم أغير القناة لأنهن يتحدثن بلغة غير مفهومة، صورة الكاتبة في ذهني: امرأة لاتمتلك الأنوثة ولاتعرف الضحك ولا يمكن أن تدخل المطبخ كل يوم أو تحبل وتلد وتربي الأطفال، ولأنني أحب التقصي حول أي امرأة علمت أن الكاتبة كانت تعرف السيد عبد المجيد.

وسألت نفسي أكثر من مرة وأكثر من سؤال:

- يا إلهي، هل أقامت معه علاقة؟ هل أكرمها بالهدايا؟ هل سافرت برفقته؟ هل...؟هل..؟ كانت الأسئلة تحرقني ولا سبيل للتأكد من طبيعة العلاقة إلا بمواجهتها يوماً ما، أشعر أنها لاتستلطفني لكن اقتحام عالمها لن يصعب علي أبداً، وأنا قادرة على ارتداء ثوب الحكمة والهدوء بل يمكن أن ألجأ إليها وأحكي لها عن كمال الرجل الوحيد الذي أحببته، كل من سبقه من الرجال الذين عرفتهم لم يستطيعوا أن يقهروني أو يبقوا على الإثارة في حياتي مثل كمال.

المشكلة التي تعترضني أن الكاتبة لم تحاول إفساح المجال إمامي لدخول بيتها. تتجنب دعوتي تماماً، ولكن في الأسبوع الأخير ربما بدأت تستلطفني بعد أن استلفت منها مجموعة روايات بشكل غير مباشر. فقط أخبرتها أنني أقرأ الكتب التي تستعيرها هدى منها وأخبرتها عن ولعي بالكتابة، أعلم أنني سببت لها صدمة، فهي تعتقد أنها المثقفة الوحيدة في العالم. الأسبوع الأخير كان اقترابي منها بفضل الهدوء الذي التزمته بحضورها.

الحقيقة أن هدوئي يعود لصدمتي العاطفية، وحدسي الذي يخبرني بأن كمال سيضيع مني للأبد، منذ أيام وهو يحكي لي عن قراره بالارتباط الجدي بعد فشله لمرتين، لاأدري هل أفرح أم أحزن؟ في نهاية الأمر كمال شاب وعازب ويصغرني بست سنوات، كما أنه رجل ثري ويعمل في منصب كبير، لن أتمكن من مطاردته طوال العمر، المهم أن يأتي قرار التخلي من طرفي أنا.

الكتابة مهمة صعبة، كيف أكتب عن ألمي الآن في هذه اللحظة؟ ماهي الكلمات التي تعبر عن انكساري وهزيمتي؟.. لا يمكنني، هذ مهمة.... الكاتبة، أجل هي من ستكتب، سأعرض عليها فيما بعد كل ما أكتبه وهي حرة، تفعل به ما تشاء، تغيره، تصلح من شأنه.. لايهمني.

سأذهب إليها وأردّ لها رواية (ابنة الحظ) بما أن هدى مشغولة بمرض زوجها، هذه الرواية التي لم أفهم منها كلمة واحدة!

# وجه آخر ليسرى

تعلمت أن أضع مسافة للآخرين لا يمكن القفز عليها أو تجاوز خطها الأحمر واقتحام حياتي.

لطالما ذكرت شكوى هدى من زيارات يسرى لها كل صباح ودون استئذان ومراقبتها خروج زوجها ثم طرقها بابها، ودخولها إلى المطبخ، تعد القهوة ريثما تنتهي هدى من الاستحمام. كنت أشعر بالغيظ بدلاً عنها ولم أتوقع الوقوع في مطب كهذا.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء، وجدت المصعد معطلاً كما في أغلب الأيام، صعدت السلالم بهدوء أحمل بعض الأوراق والكتب التي أهديت إلي في الندوة الأدبية التي انتهت بعد ثلاثة أيام من الشقاء: (لقاءات وحوارات سمجة مع من يدعون أنهم أدباء كبار).. في هذه المناشط الثقافية ومنذ سنوات لايدعى أديب أو مفكر سبق أن سمعت عنه إلا وسارعت إلى الحضور، كل صباح أطالع الأخبار الثقافية، يكتب في الخبر الصحفي المعلن عن نشاطه الأديب العربي الكبير، الشاعر العظيم، وهكذا تهدى الألقاب لفلان أو علان لمجرد أنه قبل الحضور إلى نشاط في ليبيا، بعد أن يكون قد اشترط مكافآة مالية كبيرة، طبعاً بلد غني يضخ النفط بلا حساب، يأتي الضيف وطوال إقامته يتأفف من شروط الإقامة والخدمات لا تفيه حقه، نادراً ما طلب واحد من الضيوف الكبار الذين ألتقي بهم التعرف على مدينة طرابلس، أو كلف نفسه عناء البحث والسؤال عن الثقافة والأدباء فيها، لم يهتم أغلبهم بكورنيش طرابلس الممتد لمئات الأمتار وسط المدينة، لم ينتبهوا إلى أن هناك مدينة قديمة أو متحفاً أو إلى « تمثال الغزالة « وسط أجمل ميدان محاط بغابة من أشجار النخيل.

أغلبهم يستعجل الوصول إلى المطار، ومنذ أن تطأ قدمه طرابلس يقدم تذكرته ليتم حجز العودة في أقرب فرصة، لايمنح نفسه فرصة ليكتشف مدينة غامضة بسحرها بهية الحضور، يسرع إلى المغادرة ولن ننتظر بالتأكيد أن يأتي على ذكر محاسنها في حوار إذاعي أو صحفي، الأذكياء فقط والأدباء الحقيقيون هم من توقفوا هنا ولهجوا باسم هذه المدينة لسنوات طويلة، فبادلتهم طرابلس بحب أكبر، كانوا استثنائيين كما طرابلس تماماً.

أشعربهذه المرارة كثيراً كلما أقيم نشاط، تدور هذه الأفكار في ذهني لأنسى مرارة صعود السلالم، ويفاجئني انتظار يسرى لي، كان وجهها حزيناً على غير عادته، رموشها مبتلة وكأنها خارجة من حفلة بكاء، لحقت بي قائلة:

- سأتناول فنجان قهوة معك..

تلك هي قمة الذوق التي تمتلكها. لم تستأذن، بل كان فرضاً وأمراً واقعاً بطريقة مهذبة، تحمل الامتنان المسبق على تلبية طلبها.

دخلت معي إلى البيت، فتحت لها باب غرفة الصالون، كنت حريصة على

تقديم واجب الضيافة بشكل يقترب من الرسمي، لا أريدها أن تلحق بي إلى المطبخ وغرفة المعيشة، لن أسمح لها بإنشاء علاقة حميمة معي.

أعددت القهوة ووضعت بعض قطع البسكويت في طبق صغير. لم تنتظر مني ترحيباً أومجاملة، انطلقت تتكلم بصراحة عن قصتها مع كمال، وكأن سنوات طويلة من الصداقة تجمعنا.

ذرفت دموعاً وسمعت آهاتها وحسرتها عما يحدث لها من عذاب. كانت تجيد دفع المقدمات لأي موضوع تتحدث فيه، تشعرني بأنني شريكتها المتعاطفة معها سلفاً.

تجاوزت الصدمة الأولى من هذا البوح الجريء، لأول مرة ألتقي امرأة متزوجة تحكي عن علاقة خارج الزواج، وتعتبرها حقاً طبيعياً في الحياة، وأن ماتفعله لا إرادة لها فيه، بل هي مسلوبة تماماً هذا تعبيرها الدقيق عن مشاعرها.

- هل شعرت يوماً أنك مستلبة؟ تلتقين برجل ومن النظرة الأولى تعتقدين أن من حقك مطاردته؟!

أضبط نفسي فجأة بحالة ذهول شديد، لأنني ابنة هذا المجتمع الذي لايعترف بأي نوع من العلاقة بين امرأة ورجل دون زواج، منذ سنوات قليلة بات من المسموح لشابة عازبة الاعتراف العلني بعاطفتها وخفقات قلبها، وضمن حدود إطار العلاقة بالصديقات، يمكن أن يأتي هذا الاعتراف وليس على المكشوف، كلنا تحكمنا عادات المجتمع المحافظ، ندرك أن وراء الأبواب المغلقة والنوافذ الموصدة حكايات وعلاقات سرية، لكن من غير المسموح أن يجاهر بها.

أسأل نفسي: ياربي ماذا أفعل بهذه المرأة؟ كم هي واثقة من كتماني لسرها. ماهذا الثقل الذي تحملني إياه.

فجأة تقول لي:

- أنت كاتبة.

تقولها وهي متأكدة أنني أختلف عن غيري من النساء، وتتابع:

- وأنا أحب الكتابة، تعلمين أني لا أمتلك لغة جيدة أكتب بها عن مشاعري وما يجري معي، لو تكتبين قصتي!

غصباً يبدو الامتعاض على وجهي. أحاول أن أبدو أكثر رقة معها، أجيبها:

- ياعزيزتي كل واحد في هذا العالم يعتقد أن قصته جديرة بأن تكون رواية، ثم إنني لم أكتب أية رواية، مازالت لديّ الرغبة وأحاول فعل ذلك!

تقاطعني وتقول بحماس واضح:

- سأمنحك أجمل قصة، لاتعتقدي أن قصتي عادية، فيها أشياء غريبة لاتحصل كثيراً في الحياة.

تمكنت من جذب اهتمامي، هذه المرأة التافهة حياتها مثيرة، لطالما سمعت همسات النساء حولها في بيت هدى! فكرت بأنها مسلية، تجاوبت معها

وشجعتها:

- سأحضر لك كأس عصير وتحكين لي...

ابتسمت بودّ كبير وشكرتني على سعة صدري، كنت أفرغ علبة العصير والشكوك تراودني: هل أفتح بيتي وقلبي لها أم أغلق هذا الباب إلى الأبد؟ هل لديها حكاية مثيرة أم إنها إحدى كذباتها؟ هل يمكن أن تطرق بابي كل صباح ومساء كما تفعل مع هدى والشقرا؟

سمعت منهما أنها لا يمكن أن تضبط لسانها أبداً، ثرثارة كبيرة ولا تحفظ الأسرار، ولكن مم أخاف؟ لا تملك من تفاصيل حياتي أي شيء، سوف أستقبل فقط، وأقطع الإرسال من ناحيتي، هذه أفضل سياسة يمكن اتباعها، لابد أن أصغي لها.

كنت مستغرقة بالتفكير، انتفضت فجأة على حركة جسد رشيقة خلفي، التفت إليها، وجدتها تحمل آنية الزهور التي نسيت فيها بعض الورود، وقد جف بعضها وتساقطت أوراقها، حدث ذلك بفعل النسيان وعدم الاهتمام، ابتسمت يسرى وبلا تكلف أخذت تجمع الأزهار الجيدة وتشذبها وترمي الأوراق الجافة، تقوم بالعمل وكأنها تألف المكان منذ سنوات طويلة وتتنقل فيه بخفة. لم أقدم اعتذاراً عن إهمالي لشأن بيتي وهي لم تحاول إحراجي، وضعت المياه الجديدة في الآنية وأعادت ترتيب الورد، عدنا معاً إلى نفس الغرفة.

هذه المرأة تتمتع بجرأة غريبة، يمكنها أن تتسلل إلى حياة الآخرين ببساطة، لا يمكن القيام معها بخطوة تردعها بقسوة، تتصرف بودّ لافت، تثرثر طوال الوقت، لا تنصت إلا إذا أعجبتها القصة التي تستمع إليها، وتفضل في الغالب قصصاً تتعلق بحياة الآخرين، تلك التي لا يمكن لي الخوض فيها ولا أجيدها، ربما في داخلي أتقاسم الشبه معها، أنصت لمثل هذه الحكايات، وعندما أريد مراجعتها فيما بعد، أجدها تقلصت وأصبحت أقل من أقصوصة، وأحياناً يكون مايلفت انتباهي ويرسخ في ذاكرتي عبارة واحدة، ومعظم الوقت أنسى مجمل ما أستمع إليه، لهذا كان علي أن أعتمد التدوين مباشرة، هذا ماخطر لي عندما ألحت يسرى على كتابة روايتها.

أخبرتني ونحن نتناول العصير:

- ماهي نوعية الأوراق التي تكتبين عليها؟

- لا أكتب على الورق، أستخدم كراسات.

لا أدري لماذا أجبتها وقلت (كراسات)، ربما لأضع نفسي في مكانة لاتتوقعها! هزت رأسها وكأنها غير معنية فعلاً بطقوس كتابتي المزيفة التي كذبت بشأنها، وقالت:

- لا أعرف كيف أحكي لك، ولكن غداً سأهديك مجموعة أوراق ومذكرات كتبتها بنفسي. فكرت في تلك اللحظة أنها تضرب لي موعداً للقاء تحدده بنفسها، وعلي القبول وليس الرفض، تسحبني بخبث شديد إلى صداقتها، أتغلب من

جديد على خوفي الذي مصدره شخصيتها التي تشبه العلق. أعلم أن سومة متعلقة بها والشقرا، بل حتى بهيجة تذهب إليها ليس لتنظيف بيتها وإنما لتشرب معها القهوة، وجميعهن يتحدثن بسوء عنها في أغلب الأوقات، ينتقدن سلوكها ويمارسنه بدورهن.

تشاغلت بمجلة مرمية على أحد الكراسي، أخذت أتصفحها وأقرأ خبراً عن فنانة مشهورة تقوم بعمليات تجميل كل ستة أشهر، لم تهتم للخبر وكأني أغرد في واد بعيد عن حزنها الذي نهض فجأة، وقالت بصوت يوشيه بكاء:

- ماذا أفعل بهذا الحب الذي لم أبحث عنه، ولم أنتظره أبداً؟

لم أجب، وأصغيت باهتمام، وتابعت:

- في أول يوم تعرفت فيه على كمال كنت ذاهبة إليه مع هدى لطلب خدمة منه، انتابني إحساس غريب، أخذت ضربات قلبي تخفق، هل تسمعين بالحب من النظرة الأولى؟ هذا ماحدث معي بالضبط.

أخذت رقم هاتفه، وفي مساء اليوم نفسه ضربت رقمه على الهاتف بلا شعور، توقعت ألايرد علي وفاجأني رده، لكن لهجته كانت جافة نوعا ما، استفزني فأخذت أداعبه بالكلام والمزاح وأحكي له النكات، ثم دعوته لحضور عيد ميلاد ابنتي بعد يومين. أدهشته الدعوة، كان يعلم أن جوّ بيتي يختلف، حدثته عن أمي الفلسطينية التي عملت خياطة في منزلها وعملت خارج المنزل متعهدة حفلات، وعن زواجي أيضاً برجل فلسطيني، لهذا – قلت له - فإن موضوع الاختلاط أقصد بين الرجال والنساء مشروع في بيتي، ولكن ضمن حدود، أقنعته أنه سيكون الرجل العازب الوحيد الذي نستقبله، نحن عادة نسهر عائلات مع بعضنا.

وكمال من أسرة ليبية محافظة، غير متقبلة للاختلاط!

استوقفتني العبارة، سألتها:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد نحن مثلاً ليبيون، ولكن أمي وزوجي ليسا كذلك، أما عائلة كمال فهي من العائلات التي لاتتزوج بناتها أو أبناؤها من غير الليبيين.

- آه بالتأكيد هذا مايجمعك أكثر بهدى؟

قاطعتني قائلة:

- عندما لا تكون الأم في ليبيا ليبية وتكون شخصيتها قوية، يمكنها أن تفرض داخل بيتها عادات جديدة، نحن مجتمع ليبي لايقبل من الناحية الاجتماعية الانفتاح.

«أستغرب عادة من تصرفات شخص لاتمت للفضيلة بصلة وكل كلامه يدور حول الوعظ والإرشاد، وهاهي تعرفني الآن بعادات وتقاليد الأسرة الليبية وكأنني أهبط عليها من فضاء آخر، أدرك أن غرضها فقط تبرير ماتدعوه الانفتاح

بسبب الاختلاط، وأجاوز ذلك دون تعليق. تتابع كلامها:

- لهذا كانت والدتي قاسية وصارمة أحياناً في بعض الأمور، وفي أمور أخرى هي متحررة جداً، قالت:

- لاتفهمين هذا التناقض!

تنهدت وتابعت:

- علاقتي بأمي غريبة جداً، وهي التي دفعتني إلى هذا الزواج الفاشل، بينما منير مازال يعشقني حتى هذا اليوم!

- منير؟ هذا الرجل الذي أسمع اسمه من هدى أيضاً؟

هزت رأسها، كانت لاتريد التوقف عند قصته معها، فهي ممتلئة بعذابات الحب ولوعته.

«يحدث أن يجلس اثنان من الأصدقاء في جلسة حميمة فترى أحدهما يستولي على الوقت والكلام، والآخر نصيبه الصمت والإصغاء، ويحدث ان يجلس اثنان من الأصدقاء فترى أحدهما يتحدث عن نفسه طول الوقت، عن لواعج شوقه وتفاصيل هموم حياته، والآخر يتبادل معه الحوار ولكن دون أن يتواصل مع شجونه، بل يسترسل الآخر في الحديث عن نفسه و... و... أي: الاثنان في حوار متبادل غير متواصل، الاثنان يرسلان دون أن يستقبلا، الاثنان يفكران بصوت عالٍ، يحدث هذا مع من تجمعهما علاقة حميمة.

علاقتي بيسرى لاينطبق عليها أي من الصورتين، أصغي إليها لأنها فرضت نفسها علي، وأصغي لفضول لم أكن قد فطنت إليه آنذاك لمعرفة هذه المرأة التي تحدث عاصفة أينما حلت وذهبت، وهي تقصدني متعمدة لتبوح لي بأسرارها، وداخلها يقين تام أنها تقتحم حصون امرأة لم تسمح لها يوماً بدخول عالمها، ومن وجهة نظرها يبدو الأمر تحدياً، يسرى إذا لم تجد معركة تستطيع أن تخترعها من لاشيء، تعشق التحدي لتحقيق انتصار في النهاية، ويكون على أشياء تافهة، هذا ما أراه فيها الآن: امرأة متزوجة تعشق رجلاً أعزب ثرياً يعمل في منصب كبير، تطارده من مكان إلى آخر، ثم تأتي إلي معتقدة أنني سأحتضن همومها وحزنها وأربت على كتفها مواسية!

استمرت تثرثر حول طريقتها في جذب كمال ومطاردته فيما هو يعاندها ويقاوم رغباتها الأنثوية الواضحة ناصحاً إياها بالابتعاد، بعد أن شعر بثقل أخلاقي قوي نتيجة معرفته بزوجها، مما يحتم عليه أن يصون هذه الثقة «والخبز والملح ».

لكن القدر جمعهما بعيداً عن طرابلس هذه المرة، والأصح هي التي اختارت ذلك، حدث هذا بعد أن اكتشفت أنها حامل وهي على مشارف الأربعين، لم يكن زوجها يرغب بالمزيد من الأولاد، والإجهاض غير مسموح به في القانون الليبي، ولم يسجل أن مشفى خاصا تجاوز القانون سراً أو علناً، القوانين الليبية صارمة بما يخص شؤون المرأة، بدءاً من الزواج وانتهاء بكل مايترتب على أي

علاقة غير شرعية تنشأ سراً، وحتى إذا كانت النتيجة هي حمل المرأة، لا يمكن أن يسمح إلا بزواجها ممن حملت منه أو السجن لكليهما، في ليبيا نادراً ماتقع جريمة شرف، بل لم نسمع في الوقت الحاضر أنها حدثت نتيجة لعلاقة آثمة، مجتمعنا الليبي المتشدد جداً يتساهل مع المرأة،وأقصى عقوبة هي أن تنبذ إذا ارتكبت هذا الإثم، وفي الغالب يتم إخفاء ماحدث حتى لاتشوه سمعة قبيلة بأكملها، وهكذا يتستر عليها وتتكفل المؤسسات برعاية الأطفال في « دور الرعاية «.

يسرى حامل من زوجها، لهذا الأمر بسيط جداً، وهو السفر. لم يكن باستطاعته فرض إرادته عليها دائماً على الرغم من شراسة طبعه التي تصورها باستمرار، إلا أنه يرضخ لرأيها في نهاية الأمر، بعد أن تتولى إخراج مسرحية ملائمة متقنة الشروط، تجعله يمنحها المال اللازم بالإضافة إلى هدية غالباً ماتكون قطعة ذهبية تكفيراً عما سببه لها من أذى نفسي أثناء غضبه وتفوهه بكلام جارح.

في تلك القصة تقول يسرى:

- اقترح زوجي السفر إلى دمشق حيث تقيم شقيقته لترعاني، لكنني صممت على السفر إلى تونس.

أسألها بلا اهتمام:

- لماذا تونس؟

تبتسم وترمش بعينها وتجيب:

- لأن كمال كان هناك، باختصار شديد، كان قد سبقني وقال إنه هرب مني ومما سببته له من ارتباك عاطفي، أجل صارحني بذلك وهذا مادفع حماسي للتأجج أكثر وأكثر، فكرت بصديقة تقيم في تونس، وبأنها ستقف إلى جانبي، والعملية بسيطة لاتحتاج لأكثر من يوم وبعدها يمكنني المكوث في بيتها ولقاء كمال دون رقابة من أحد، وزوجي لا يمكنه اللحاق بي فهو يحتاج إلى تأشيرة دخول لتونس وهذا أمر عسير عليه.

تتكلم بثقة شديدة عن رسم خطط يكتب لها النجاح كما تدعي، ومع ذلك سألتها:

- ما الذي جعلك تثقين بأن كمال الهارب منك إلى مدينة أخرى وربما مع امرأة أخرى أيضاً متلهف على لقائك؟

مالت برأسها يمنة ويسرة بدلع شديد كما تفعل أي ممثلة تلعب دور امرأة لعوب، وقالت وقد نسيت ألمها وعذابها الذي جاءت شاكية منه:

- لو تعلمين ماحدث حين ذاك.

لم تسألني، هي طريقة مثيرة لتلفت انتباهي، لهذا تابعت:

- في هذه المرة تعلق بي كمال لدرجة كاد معها أن يكره نفسه!

«استفزتني الكلمة، كيف يمكن أن نجمع الحب والكراهية لشخص واحد! بالتأكيد لا يمكن أن تحلل ذلك المعنى الغريب، وأعتقد أنها قصدت المبالغة الشديدة حول فعل التعلق والحب، هو التناقض الكائن في اجتماع ضدين معاً إذا كان المحبوب مطارداً من المحب، وهنا يلعب المحبوب دور المستنكف العازف عن الارتباط علناً، يظهره بمبالغة شديدة أيضا وتطرف غير محدود ولسان حاله يقول لمن يحبه: أنا غير جاهز الآن، أنت لاتعنيني، أنا محصن من الغواية، أرفض الانصياع لما ترغبه وتعشقه بي لأنك أنت من اختار ولم تمنحني الوقت لأختارك، هو صراع إرادات في العلاقة.

حيث الحب لم يتحول إلى شغف من النظرة الأولى بينهما، ولكن المستقبل يسمح أن يحول هذا النوع من العلاقات إلى عادة لا يمكن التحول عنها إلا بصعوبة، أما المحب العاشق الذي يطارد من يحبه فلا يجيد إلا العناد والهروب مما يحمله عبء تحقيق انتصاره ونجاح قراره في الحصول على مايريد، يكتفي بأنه اختار من يحب، لايعنيه المحبوب بقدر مايهتم لما ينتهي إليه من تعليقه في شص منصوب لأجله وعلى قياسه، مثل هذه العلاقة تنتهي على الدوام بفتور مفاجيء من طرف المحب «.

لم أصل إلى هذا كله إلا من خلال مراقبتي لردود فعل يسرى حول هذه العلاقة، هي الآن في منتصف العلاقة التي بدأت قبل عام، واليوم تبكي، ليس لأنه قرر أن ينهي علاقته بها، بل لأنه أخذ قراراً بالزواج كما تدعي، هي في المنتصف أو قبل النهاية بقليل تناضل من أجل تحقيق نصر صغير آخر، جاءت لتقول لي:

- أريد أن أعلم هل مازلت الأثيرة في قلبه؟ أم ستأخذه امرأة أخرى؟ هل هي قادرة على إسعاده كما فعلت أم لا؟

كانت تتكلم وتراقب تململي من زيارتها التي طالت، فتعمل جاهدة لجذبي مرة ثانية بما تحمله من قصص مثيرة، في تلك الجلسة شهدت معها أربعة فصول لتقلب مزاجها بين الحزن الشديد والفرح الغامر وبين اليأس والأمل بالمستقبل وما تحمله من حب للحياة الرغدة.

كانت تنوي أن تضعني في لحظة إثارة وتمضي وقد نجحت، لم أكن قد طلبت منها تفسيراً على تعلق كمال الشديد بها في تلك الرحلة، لكنها فاجأتني قائلة:

- تأخر الوقت.

وقفت وقد سوت من غطاء رأسها بدبوس تضعه في فمها أثناء لفه على رأسها ثم تشبكه بالغطاء بمحاذاة أذنها، وصلت إلى الباب برشاقة وقبل أن تمضي

قالت:

- غداً أرسل لك بهيجة!

كدت أقاطعها رافضة العرض تماماً، لكنها لم تترك لي فرصة وتابعت:

- اسمحي لي أن أقدم لك شيئاً متواضعاً، سأرسل بهيجة لتساعدك غداً.

وتابعت هامسة:

- سأحكي لك عن تفاصيل علاقتي بكمال، ماذا نفعل عندما نكون معاً، صدقيني لم أقدم على خيانة زوجي حتى هذه اللحظة، فقط أمشي بالكعب العالي فوق جسده وهو يتأمل ساقيّ!

خرجت مسرعة وتركت الذهول التام يلفني من كل اتجاه.

كأنني أتابع دراما تعرض على الشاشة، وفي موقف محبوك بإثارة كاملة تعلن الشارة انتهاء الحلقة. هذا مافعلته يسرى قبل أن تودعني وتخرج.

# بهيجة والكاتبة

البحر هادىء والحظ يحالف المركب الذي تخطى حرس خفر السواحل وبعض التيارات البحرية، المهاجرون على متنه يحلمون بالوصول بأقصى سرعة ممكنة تمكنهم من نزع الخوف من قلوبهم بشكل نهائي، الخوف الجاثم على صدر كل واحد منهم، لا يمكن لبهيجة حتى أن تتخيله، هل يشبه خوفها أو أكثر؟ هل يتقاسمون معها نفس الحلم؟ أم أن لدى كل واحد منهم حلماً يختلف عن الآخر؟

هي تعلم أن الهدف مشترك، وهو الوصول إلى الضفة الأخرى، أما بعد ذلك فهذا ما لا يمكن أن تدركه، لأنها تعلم أن إيطاليا ماهي إلا أرض أخرى تعبرها لتتمكن من الوصول إلى فرنسا حيث تقيم شقيقتها.

أخبرها رضا بأنه لايحلم بأكثر من العمل في أحد المرافيء حمالاً، وإذا ابتسم له الحظ سيبحث عن عمل في أحد المقاهي أو المطاعم، لا أحد يعلم ماذا ينتظره هناك.

ترتطم يدها بتلك الذاكرة المعدنية، تبتسم في سرها هازئة من أحلام كاتبة مجنونة اضطرت إلى تنظيف بيتها بناء على رغبة يسرى في أحد الأيام، بعد أن دفعت لها مسبقاً خمسة وعشرين ديناراً وطلبت منها أن تطرق باب الكاتبة صباح اليوم التالي.

استقبلتها الكاتبة ببعض من الجفاء، كانت تلتقي بها في بيت هدى، لم تكن هناك أحاديث تدور بينهما، دخلت ترافقها ابنتها المتبناة سارة، رحبت الكاتبة بالطفلة، قدمت لها قطع الحلوى وطلبت منها الجلوس هادئة أمام شاشة تعرض رسوماً متحركة.

حين سألتها بهيجة من أين تبدأ، لم تهتم بالأمر وقالت لها:

- ابدأيي بغرفة الاستقبال.

ثم طلبت منها الاهتمام ببعض الكتب والأوراق وأن تحرص على عدم الاقتراب من المكتبة، فقط تمسح الغبار، وهزت كتفيها بلا مبالاة واضحة، وذهبت لتجلس إلى طاولة وضع عليها جهاز « كومبيوتر «.

وصلت بهيجة إلى غرفة النوم، شعرت برهبة من دخولها، اعتادت أن تطلب الإذن في مثل هذه الأحوال، كانت الكاتبة في الممر تحمل فنجان قهوة كبير، شعرت بارتباكها، سألتها عن السبب وسرعانماابتسمت وهي تفتح لها باب الغرفة وتحاول أن تشرح لها ماهو المطلوب تنظيفه، لكن بهيجة وقفت متسمرة تماماً أمام لوحة فنية كبيرة، وضعت على الجدار المقابل للسرير.

وقبل أن تعبر الكاتبة عن دهشتها من اهتمام بهيجة بالفن التشيكلي التفتت بهيجة تسألها:

- مدام، هذه لوحة أصلية؟

ثم تمتمت بحروف غير مفهومة وتابعت:

- أقصد رسمها الفنان نفسه! واقتربت أكثر محاولة كنس غبار اللوحة بفوطة ملفوفة على مكنسة بعصا طويلة.

أجابتها الكاتبة بشرود:

- أجل رسمها الفنان، فنان ليبي معروف.

التفتت بهيجة وقد أرخت يدها فجأة دون أن تستأنف مسح الغبار عن الإطار وسألت:

- هذه اللوحة نفسها كانت في بيت السيد عبد المجيد.

وصمتت كأنها تنتظر رداً!.

«لم أستوعب في تلك اللحظة بعد أن صدمتني بهيجة بمعرفة السيد عبد المجيد واقتنائه ذات اللوحة، لم أستوعب جرأة المصارحة الفجة تلك، اهتزت مشاعري تماماً واقتربت من حافة السرير وجلست أتأمل اللوحة بدوري وأفكر بماذا أجيبها؟ لابد أنها ستخبر يسرى وهدى بالأمر وتعتقدان أن ثمة علاقة تجمعني بالسيد عبد المجيد. فجأة لا أعلم كيف قدر لي أن أحيك كذبة صغيرة وحاولت ادعاء لامبالاة لاتتناسب ودهشتي الأولى. وقلت:

- ربما، أعتقد أنني سمعت باسمه، يمكن أن يكون هو الذي أهدى زوجي هذه اللوحة بمناسبة زواجنا.

ووجدت بهيجة مناسبة لتثرثر معي دون ارتباك هذه المرة وكأنما هناك مايجمعنا، حدثتني عن عملها في بيته. ثم فجأة ودون أي مناسبة، اقتربت بودّ مني لتخبرني بأن يسرى كانت تتكلم معه لساعات طويلة على الهاتف، وأنه أهدى اليها قلادة ذهبية في أحد أعياد ميلادها، وأنه ساعدها بالمال في كل مرة سافرت فيها، ثم انقطعت عنه حالما تعرفت بكمال. كنت أصغي وأقلب شفتي مبدية استغراباً شديداً مما تقوله، أستغرب من جرأتها على فضح أسرار يسرى الكريمة جداً معها، وأستغرب من اطلاعها على كل مايدور بينها وبين من تعرفهم بتفاصيل دقيقة، وأقول لنفسي: إنها امرأة تافهة فعلاً ورخيصة لدرجة فضح نفسها وإفساح المجال لبهيجة لتعرف عنها كل تلك التصرفات التي غالباً ماتكون سر المرأة المكنون، وشعرت بخوف فجأة من بهيجة

وسألت نفسي من جديد:

- هل اقتنعت بما أخبرتها إياه بشأن اللوحة؟ أم إنها شكت بأمري هذه المرأة الثرثارة؟!

حينما اقتربت من الانتهاء كان الوقت وقت غداء، كنت أحرص في أغلب الأيام على دخول المطبخ وإعداد الطعام بسرعة، لا أجيد فنون الطهي التي تتفاخر بها كل من هدى ويسرى لهذا وضعت شرائح اللحم في الفرن حتى نضجت وأعددت طبقاً من السلطة الخضراء.

دعوت بهيجة لمشاركتي، قبلت الدعوة ببساطة فهي تعودت أن تشارك الجميع الجلوس على موائد الغداء معهم وكأنها فرد من أفراد الأسرة.

لم أحاول أن أطرح عليها مزيداً من الأسئلة حتى لاتذهب ظنونها بعيداً.»

# طرابلس مدينة مستعارة

طرابلس مدينة مستعارة من أجل البوح والحكي، لا يمكن لها أن تخلع ستارة الفضيلة لترضي فضول الباحث عن المسكوت فيها وهو يتلصص على خيباتها وهزائمها، أما الباحث عن الحقيقة فسيكتشف أن لطرابلس مدينة ظل ثانية مختبئة داخلها.

مدينة تصدر الفرح وأخرى تخفي الحزن، واحدة تدعي الفضيلة وثانية تسعى وراء الفضيحة، مدينة حقيقية ومدينة مصنوعة جدرانها من الوهم.

كل منهما تتسابق لتتجاوز الأخرى، وكل من فيها يسكن الحقيقة ويصنع حكايته من الوهم، الجميع يمتلك شهوة للحرية ولا ينالها إلا في مغادرته للواقع وسفره للمدينة الثانية.

مدينتان، واحدة للنهار والعلانية وأخرى للعتمة والكتمان، تتناوبان الظهور ولاأحد يمكنه الاستغناء عنهما، هوس يصيب أهلها كل صباح في لعنها ومقت حياتهم ونكرانها في العلن. ومع حلول المساء يغوصون في عوالمها سراً متجاوزين كبائر خطاياهم آملين بغفرانها وصفحها، بما تمنحه لهم من حرية يستعيرون بها صمت العتمة وهدوءها ليدفنوا فجور الليل دون أن يدروا أن هناك آخرين ينتظرون هفواتهم على أحر من الجمر، وأن من بينهم من لايصبرُ على كتمان سره.

مدينة مستعارة كما أسماؤنا التي لا نفصح عنها إذا نوينا البوح بما يختلج في الصدر من ألم.

مدينتان، واحدة للباحثين عن الثروة وأخرى للشعراء المنتظرين أصدقاءهم حتى يرفعوا قبعاتهم تحية لنص جميل يتغزل بها.

مدينة مستعارة لأولئك المنقبين في أرضها عن المال والصفقات، يحفرون شوارعها ويرحلون إلى مدن أخرى يبنون فيها ناطحات سحاب بما كسبوه من خيراتها، إلا أن طرابلس لم تكن يوماً مدينة لهؤلاء الناكرين فضلها، لطالما كانت مدينة كادحة لأولئك الطيبين الموتى عشقا لترابها وبحرها.

# غبار على اللوحة

صرت طرفاً، شئت أم أبيت، في علاقة تربطني بتلك المرأة التافهة يسرى، والحقيقة أنه داخلني إحساس بالغضب غامض لا أجد له تفسيراً، حينما أخبرتنى بهيجة عن علاقتها برجل عشقني، كيف يمكن لرجل أن يساوي بيني وبينها، كان يدعي أنه صاحب ذوق رفيع في اختياراته بالحياة، وإلا لما تعلقت به في الماضي قبل أن أتزوج. راودني شعور بالخسارة كأن القدر يعمل ضدي في الخفاء، وفجأة برزت إحدى خياناته حاضرة ومتجلية في ما أكتشفه الآن.

حاول مرات عديدة الاتصال بي، وحالما لاحظ جفائي وصدودي أخبرني أنه رجل نبيل ولن يتعرض لي ولكنه سيبقي قلبه المحب مفتوحاً لي طول العمر، وسيلبي ندائي في أي وقت أشاء.

السيد عبد المجيد رجل أعمال ثري وابن عائلة متوسطة، متزوج من سيدة أسرتها من عائلة كبيرة ثرية وكانت تكبره بثلاثة أعوام، أنجبت منه ثلاثة أولاد، كان رجلاً وسيماً ولم يكن قد أتم تعليمه الجامعي حين تزوجها، ألحت عليه ليفعل، كانت أعماله وشركاته تدر دخلاً كبيراً، لم يكتف بما أسست له من عمل، أخذت أعماله تكبر وشركاته تنمو في الداخل والخارج، عندما أخبرها بأنه نال الشهادة الجامعية كانت سعيدة جداً لأنه رجل بارع وذكي، وهكذا صدقت أنه يحمل إجازة في القانون.

ما كان يعرفه السيد عبد المجيد هو قانون الحياة والسوق والمال، أتقن التصرف واتباع سلوك رجال الأعمال الأثرياء، لم يكن يحب القراءة، لكنه يمتلك مكتبة تحتوي على آلاف الكتب لايمتلكها أي مثقف في البلد، لم يكن يعرف في الفن التشكيلي ولا يمكنه التمييز بين مدارسه، لكنه اقتنى أعمال فنانين كبار من مختلف العواصم التي زارها.

قبل سنوات طويلة عندما كان أحد رؤساء التحرير يختبرني في العمل الصحفي أرسلني إلى معرض تشكيلي لأكتب عنه متابعة. كان الازدحام الشديد في المعرض يمنعني من متابعة حفل الافتتاح، انتظرت حتى انتهى وبحثت عن صحفي شاب أعرفه، يعمل لصحيفة أخرى، وطلبت منه تقديم المساعدة، فقال لي:

- عليك بالتقاط صور بعض اللوحات من أجل التغطية.

أشار بيده إلى لوحة تبدو من بعيد ذات خطوط غير مفهومة لي أبداً، رحت أتأملها وأسأل لماذا هذه بالذات؟ أبحث عن أسباب تجعل هذه اللوحة أهم لوحات المعرض، وفيما أحاول التقاط صور لها، أخذت أتراجع خطوتين إلى الوراء، وفجأة وجدت نفسي في حضن رجل ضخم، ارتبكت، واعتذر بأدب شديد، ذلك الرجل لم يكن سوى السيد عبد المجيد وكلما تذكرت تلك اللحظة أتخيل نفسي بطلة لفيلم عربي رديء؛ لأن المصادفة لم تمر بسلام، وبعد حديث قصير قبلت

دعوته على الغداء في أحد المطاعم، جاء إلى المطعم محملاً بالهدايا الثمينة وتحدث معي حول كل شيء في الحياة، وعندما استعدت مادار بيننا وجدته لا شيء، كلاما لايحمل أي مضمون سوى تلك الإشارات إلى علاقة عاطفية.

لم أكن فتاة سهلة المنال، وفي الوقت نفسه لم أعمل على صده، كنت بين بين، أقبل مرة وأرفض مرات، لأكثر من خمس سنوات كان الرجل الوحيد في حياتي، يغدق علي الحب والهدايا دون أي وعد بالزواج، كنت أبحث عنه في أوقات صعبة تمر بي فلا أجده وعندما يعود كانت أعذاره جاهزة وكلماته حازمة لا تقبل النقاش والحوار.

لم أضيع فرص زواج وأنا معه لأنها لم تأت أصلاً، أو أنها جاءت وأنا غائبة في الحلم، أحلم أنه سيأتي يوماً ما راكعاً على قدميه يطلبني للزواج.

بقي الحلم يخصني وحدي حتى استفقت فجأة على يد صديقة تنصحني بالزواج من رجل أعمال متواضع بالمقارنة مع السيد عبد المجيد، لم أتردد، كنت تقريباً بلا عمل، فمؤسسة طبع الكتب التي أعمل بها على وشك الانهيار.. بعد غياب طويل عاد السيد واتصل بي، أقفلت الهاتف ولم أستجب لأكثر من مرة، ثم قررت أن أتصل به وأبلغه نبأ زواجي متوقعة أن يكون ردّ فعله بارداً، لكنني فوجئت بحزن يشتبك مع مشاعر غضب مكبوت، في نهاية المكالمة طلب مني أن أقبل هديته لي بمناسبة الزواج.

من حسن حظي أنه بعد مضي أكثر من شهرين على زواجي سافر زوجي في رحلة عمل، لهذا عندما أتت الهدية التي حملتها موظفة حسناء تعمل لديه استقبلتها بترحاب، لم تكن هدية واحدة، كانت مجموعة كبيرة من الهدايا وأهمها على الإطلاق كانت تلك اللوحة، وكان القدر يقف إلى جانبي في لحظات أحتاجه فيها فعلاً لأن زوجي عودني أن يعود فجأة كما يسافر دون سابق إنذار.

فتح الباب، وعندما دخل نظر مباشرة إلى غرفة الاستقبال، وجد سيدة جميلة وهمس يسألني عنها، أخبرته بأنها صديقة قديمة علمت بزواجي متأخراً وجاءت للتهنئة.

انصرفت الفتاة وأخذ زوجي يتأمل اللوحة فأعجبته كثيراً، واقترح أن لاتبقى في الصالة، بل سيكون مكانها المفضل غرفة النوم.

شكرت الله أنه ظن اللوحة من صديقة، على الرغم من إبداء استغرابه الشديد لأن اللوحة رسمت بيد فنان معروف وثمنها مرتفع، أقنعته أن صديقتي من عائلة ثرية تقيم في الخارج.

كانت اللوحة تقابلني كل صباح، وأنا صدقت في داخلي أنها هدية صديقة تقيم في الخارج، هذه نصيحة أخذت بها من صديقة أخبرتني ذات مرة قائلة:

- إذا كنت مضطرة للكذب عليك أن تصدقي أولاً كذبتك حتى يصدقك الآخرون.

جاءت بهيجة اللعينة لتعيد لذاكرتي تلك القصة الحقيقية من جديد، وتمسح

غبار الذاكرة.

# يسرى تبحث عن كاتبة

ما لم تدركه الكاتبة يومذاك أن بهيجة ويسرى لا تهدفان إلى فضح أسرار صديقاتهن، هما فقط تستخدمان تلك الأسرار من أجل الابتزاز العاطفي، أخبرت يسرى صديقتها هدى بأن هناك معرفة وطيدة بين الكاتبة وبين عبد المجيد الذي سرقت رقم هاتفه في إحدى المرات من هدى، وفيما بعد فعلت سومة ذلك معها قبل طلاقها بحجة طلب مساعدته من أجل إجراءات الطلاق، بصفته رجلا ذا نفوذ واسع، شعرت هدى أن الكاتبة متورطة لكنها غير متأكدة من ذلك بعد، وإذا كان ذلك حقيقياً فمتى حدث؟

وجهت لها دعوة لتناول القهوة معاً، حينما دخلت كانت بهيجة تقوم بمهامها في صمت، سحبتها من يدها وقالت لها:

- لنشرب القهوة في المطبخ أفضل.

كانت تثرثر عن تفاصيل الأيام الماضية، عن زوجها وشرائه أثاثاً جديداً لمنزل صفاء، وكيف أخذت تستعرض عليها كل هذا العطاء والحب من زوجها المخلص، من بعيد كانت بهيجة تراقب وتستمع، فجأة دخلت يسرى تتكلم بصوت مرتفع وتحيي الجميع بمرح، وكأنها امرأة أخرى غير التي جاءت تشتكي قبل يومين في بيت الكاتبة.

خرجت هدى لتتابع عمل بهيجة بينما جلست يسرى على كرسي وتناولت فنجان القهوة، رشفت منه ونظرت إلى الكاتبة تحاول جذب اهتمامها وكانت تقرأ إحدى الصحف.

همست تسألها:

- ماذا تقرأين؟ كلها أخبار قديمة، الأخبار الجديدة لم تحدث بعد.

ابتسمت الكاتبة تحاول مجاملتها وهي تحدث نفسها:

- امرأة تافهة، وستبقى تافهة.

إلا أن يسرى ودون مقدمات قالت لها:

- أنا أعرف السيد عبد المجيد الذي ح... تمهلت قليلاً ثم تابعت.. أقصد على علاقة أنت وهو!

ردت الكاتبة بحزم:

- لم تكن علاقة أبداً، هو صديق زوجي.. نقطة انتهى!

لم ترتبك يسرى، أزاحت غطاء رأسها ورمته خلف ظهرها، وقالت:

- قبل أن ألتقي بكمال أمضيت ليالي طويلة أتحدث إليه بالهاتف، قابلته مرتين فقط

ضحكت بغنج ودلال وتابعت:

- كانت العلاقة بيننا أشبه بالصداقة، يعني كان يحب طريقتي في السخرية

من الناس، كنت أمضي الليل أروي له النكات البذيئة.

تقول ذلك ببساطة شديدة وكأنه أمر طبيعي، تتابع دون أن تهتم بما تبديه الكاتبة من استياء

- تعرفين يحب هذا الكلام.

- لا، لا أعرف أبداً، لم ألتق به.

«أصبح لدي إصرار غريب على نكران هذا الماضي، وأعلم أنه بدوره لن يعترف بتلك العلاقة مهما حاولت استدراجه «.

يرتفع حاجبا يسرى تعبيراً عن الدهشة، وتمضي ملخصة تلك العلاقة بأنها نفعية فهي لا تريد منه إلا بعض الخدمات، لكنه مع ذلك كان كريماً معها عندما دعته إلى بيت هدى وأخبرته أنها تحتفل بعيد ميلادها في بيت صديقة، لبى دعوتها وأهداها سلسلة ذهبية ثمينة، بعد ذلك، وقبل أن تسافر إلى تونس أخبرته بأنها ستجري عملية جراحية، فأرسل لها مبلغاً من المال، ولأنها لم تتمكن من الخروج بسبب زوجها أرسلت سومة صديقتها إليه.

- آه (سومة) أيضاً تعرفه إذاً!

تنهدت وأجابت:

- تعرفت عليه ثم أخذت تتصل به دون علمي، وعندما علمت قالت لي:ــ هذا رجل سيء، طلبت منه أن يساعدني في إجراءات الطلاق لكنه ساومني.

- كل هذا حصل منه؟ أقصد منذ متى؟

- منذ سنة تقريباً، أو أكثر بقليل...

ارتاح بال الكاتبة فهي متزوجة منذ خمس سنوات، ولم تعد تعرف عنه أي شيء، ومع ذلك لم تكن من شيمه أبداً تلك التصرفات التي تتحدث عنها يسرى لم يكن رجلاً نذلاً، ولكن لعله تغيرأو لعله يجيد ارتداء الأقنعة.

وبسرعة ضبطت نفسها وهي تحاول التقصي أكثر، لاتريد أن تضعها في دائرة صغيرة مقفلة لاتتمكن من الخروج منها فيما بعد!

أحست بأن خطراً يتهدد حياتها، حتى لو كان ذلك كله من الماضي، إلا أنها حريصة على أن يصدق زوجها أنها لم تعرف أي رجل قبله!

عادت هدى إلى المطبخ وأعادت تسخين قهوتها في جهاز الميكرويف وجلست تستمع إليهما، حاولت أن ترسل إشارات إلى الكاتبة حتى لاتسترسل في الحديث، التقطتها بدورها على الفور فنهضت معتذرة بأن لديها مواعيد عمل تنتظرها!

كان خوفها يزداد ويكبر كلما تقدم النهار، في المساء تأكدت أنها تبالغ في ذلك الخوف، عندما وضعت أسرار يسرى في كفة تقابل كفة الماضي، صار الميزان يتأرجح في عقلها ويرسل إشارات مطمئنة لقلبها حتى يهدأ خوفها، لكن يسرى لا يمكن أن تهدأ حياتها إلا إذا وصلت إلى هدفها!

لم تعد معنية بصديقتها الشقرا هذه الأيام بعد مشاجرة صغيرة بينهما حول أمور تافهة، لهذا فضلت أن تطرق باب الكاتبة حاملة معها هدية.

***

## يسرى بطلة رواية

دخلت يسرى وكأن البيت بيتها، إشراقتها أصابتني بالعدوى ومسحت كثيراً من نفوري السابق لها ولحضورها، وسألت نفسي وأنا أعد القهوة:

- هل ظلمتها أم أن هدى السبب؟

تقول إنها تكن لها الحب ولاتحتمل سلوكها، هي من شوه صورتها وجعلني أخشى ازدياد المودة بيننا، احتلت كرسياً في غرفة الجلوس، كانت تحمل في يدها كيساً أنيقاً، وبينما أسكب القهوة أخرجت منه كراساً أحمر اللون ذا حجم كبير، تأملت المفاجأة بدهشة.

قالت على الفور:

- هدية، مارأيك، أليس النوع الذي تفضلينه؟

شكرتها وابتسمت ولم يخطرلي أن تأخذ أمر الكتابة بهذه الجدية.

فتحت الصفحات الأولى منه وتناولت قلماً من حقيبتها قدمته لي وأخبرتني أنها ستملي علي قصتها وعليّ أن أكتبها.

ارتبكت قليلاً فلم أكن جاهزة وليس في نيتي أن أكتب قصة حبها، أجبتها بهدوء:

- لا تستعجلي، سأكتب بطريقتي الخاصة، يعني أريد أن أتعرف إليك أكثر، عليك فقط أن تحدثيني عن حياتك في الطفولة مثلاً،عن زواجك!

كان في نيتي تشتيت هدفها الذي تسعى إليه بجدية، ولم أتصور أن يكون في طفولتها أو كامل حياتها شيء يثير شهيتي للكتابة، لهذا تابعت حديثي لأقنعها:

- يسرى.. أي رواية تحتاج فيها الشخصية للدراسة لتكون عميقة لها أبعاد، هل تفهمين ما أقوله؟

كانت نظرتها تحمل استغراباً واضحاً مثلما تحمل شوقاً لتحقيق هذا الحلم، أن تكون بطلة رواية، تريد أن أكتب عنها لتشبع رغبة جامحة بأهميتها، لايهم من يكتب، المهم دور البطولة الذي تلعبه على كل مسرح تجده فارغاً في هذه الحياة.

أجابتني:

- معك حق، أصلاً كل ماجرى لي بسبب من والدتي، تعلمين أنني لست على صلة جيدة بها، هل تتصورين أماً في الدنيا تقف في صف زوج ابنتها ضد مصلحتها؟! تنهدت بحرقة وتابعت:

- لطالما قالت لزوجي: انتبه لتصرفات ابنتي لأنها تحتاج إلى مراقبة وضبط، هي من جعلت زوجي يتابعني ويراقبني ويشك بكل سلوك أقدم عليه، أنا لاأحب الكذب، أمي وزوجي أجبراني على ذلك!

أخذ صوتها يتهدج، بدأت تحكي عن علاقتها بوالدتها بصوت فيه نحيب مستتر،

كنت واقعة تحت تأثير تلك العواطف الباذخة، أنصتُ أحاول جاهدة أن أبقى واعية قدر المستطاع وخطر لي أن أستفزها أكثر فسألتها:

- هل كانت تغار منك مثلاً؟

- تابعت بعد صمت قصير لأوضح لها: أقصد هذه المشاعر يمكن أن تحدث بين الأم وابنتها!.

لم تجب على الفور، فتحت حقيبة يدها، أخرجت علبة سجائر، أخذت واحدة وبدأت تنفثها، شعرت بالخوف من مكوث تلك الرائحة داخل الغرفة، ثم هدأت لأن زوجي لن يعود قبل أسبوع، وقررت شراء ملطف للجو.

لم أكن أعرف بعد رأي زوجي في امرأة تدخن السجائر فهذا الأمر مع انتشاره الآن إلا أنه مازال من المحرمات في مجتمعنا الليبي.

كانت يسرى قد انقطعت عن التدخين كما أخبرتني بعد أن طلبت من زوجها عقداً من الذهب ثمنه مرتفع ورضخ لطلبها فيما لو فعلت ذلك، بدوري أتوقع أن تكون هديتي ورقة الطلاق لاغير.

لم تحاول أن تستأذن قبل أن تتناول السيجارة لهذا استمرت تحكي لي عن علاقتها المتوترة بوالدتها التي عملت في وقت ما خياطة، وكانت لها شهرة غير عادية، ثم أخذت تغير نشاطها التجاري وتفتتح مقاصف في المدارس، بدأت بأول مدرسة ثم تلتها مدارس عدة وكان عملها أن تنطلق في الصباح الباكر لتزويد تلك المدارس بالخبز وعلب التن والهريسة وعلب العصير والبطاطا، وكانت على حدّ تعبيرها امرأة مدبرة ولها علاقات بالمسؤولين عن الجمعيات التي تبيع (التن والهريسة وعلب العصير) بأثمان منخفضة أو مدعومة، وهكذا أخذت تحقق أرباحاً جيدة أعلى من أرباح والدها في صيانة السيارات.

تعتقد يسرى أن ما تحققه والدتها من مال هو السبب الرئيس في فرض سيطرتها داخل المنزل، لهذا كان والدها الرجل الذي لاحول له ولاقوة.

وفجأة خطر لي أن أسألها عن علاقتها بوالدها، ولم أتوقع تلك المفاجأة إذ أجابتني:

- والدي! هل سبق أن حدثتك هدى عنه؟

- لا أبداً لا أعرف عنه أي شيء.

كنت صادقة تماماً لأن هدى كانت تنتقد سلوك يسرى فقط!

سادت لحظة صمت وهدوء لم أتوقعها، تناولت إحدى الوسائد الصغيرة وضمتها إلى صدرها وكأنها تحتمي بها، وعندما حاولت أن أتأسف عن خطأ لم أقصده أشارت بيدها أن لاشيء حدث وازدادت تمسكاً بالوسادة المطرزة بخيوط خشنة حتى شعرت أنها انغرست بلحم يدها.

- هل هناك شيء يزعجك!

- لا أبداً، أفكر هل من المهم لو أخبرتك أن والدي تحرش بي؟

ثم استدركت:

- هذا ماحاولت جاهدة أن تغرسه داخلي وكلما عدت إلى ذاكرة الطفولة أرى صوراً ضبابية غير مفهومة، كانت تبعدني عن حنانه بقسوة شديدة فيما والدي يقول عني:- - إنني أجمل وردة في بستان يمتلكه.

أخبرتني الأمر وكأنه حدث البارحة، ودون أن ألحّ عليها لأفهم، كان يمكن لها أن لا تذكر هذا مما جعل فضولي يكبر.

«لم أكن ملمة بعلم النفس، إنما بدا لي أن ما يحدث معها ماهو إلا انعكاس لذلك الماضي، وأهم مشاكلها هو علاقتها الحميمة مع زوجها، استمعت أكثر من مرة أثناء جلسات القهوة الصباحية وهي تنقل عالم غرفة نومها وتناقش ما يتعبها مع صديقاتها، وتجعل قضيتها تأخذ بعداً دراماياً، في إحدى المرات كانت تتحدث عن عدم وصولها للرعشة وأنها لم تعرفها طوال حياتها الزوجية، وكم تبذل من جهد مع محاولات زوجها المستميتة لتحصل عليها.

وكانت هدى تضحك من مغامرة الذهاب برفقتها إلى طبيب نسائي، وعن محاولته استغلال يسرى أثناء الفحص وهو يحاول مداعبتها – طبياً- ليتأكد إذا كان بإمكانها الحصول على تلك النعمة المفقودة.

لم أهتم في ذلك الحين لتلك القصة، أما الآن فأجد نفسي مهتمة بتفسير وتحليل علاقتها بزوجها، ربما كانت تخاف الرجل في داخلها، على الرغم من بذاءة لسانها وكثرة اهتمامها بالرجال أينما التقتهم، بل ذلك التعدد في العلاقات بلا طائل وإنكارها الدائم لكونها لم تخن زوجها الخيانة بالنسبة إليها هي أن تنام في فراش رجل آخر فقط لاغير «.

عدت أسألها بفضول واضح:

- كيف حدث التحرش، ماذا فعل؟!

تراخت يدها عن الوسادة واقتربت مني وكأن أحدا ما يسترق السمع قائلة:

- لم أشعر يوماً بذلك.. كنت أظن أن تقبيله لي على فمي طبيعي جداً وأنه حين يأخذني بين أحضانه كان لمجرد التعبيرعن حنان الأب لابنته، وفي مرحلة المراهقة كنت فتاة مشاغبة، ضحكت عندما لمحت ابتسامتي لكنها تابعت:

- في إحدى المرات سمعت أمي تؤنبه وتكيل له التهم وتقول:

- اترك البنت في حالها، علاقتك بها ليست خافية عليَ.

لكنه نفي الأمر وأجابها:

- أنت تسيئين فهمي، هذه ابنتي، كيف يخطر لك أن أمسها بأذى؟!

هذا ماسمعته، فتنبهت، صرت أبتعد عنه وأشعر بالخوف، وبدورها والدتي كانت تصر ألا أبقى بمفردي معه، وفي تلك الفترة بدأت أتعلق (بمنير) وكان يسكن إلى جوارنا، أحبني وأحببته كثيرا، كان يغار عليّ ويقف لي حارساً في الشارع.

قاطعتها:

- أعتقد أنه مازال ملاكك الحارس؟!

ضحكت مثل عادتها بغنج وأجابت:

- منير له دور واحد فقط الآن هو أن يعطيني المال لأشتري به هدايا لكمال.

قالت ذلك ونظرت إلى الساعة وكأنها شهرزاد المعاصرة، توقفت عن البوح إلى صباح أو ليل آخر لا أدري، نهضت فجأة وأخبرتني أنه حان موعد عودة الأولاد، ذهبت بسرعة كما دخلت لأفكر من جديد هل تستحق أن تكون بطلة الرواية؟!

# تحرش وصداقات في المركب

رحلات السفر تحتاج إلى رفيق يؤنس الطريق، كيف لو كانت قطعت البحرالمتوسط بمركب مجهز لدخول مناطق محدودة منه.. هي مغامرة ارتضتها بهيجة وفات أوان الندم.

الوقت الذي يمضي يعني أنه دقائق كتبت لها في هذه الحياة، تلتفت حولها غير مصدقة بأنها ضمن هذا الجمع تشترك معهم بإغراق الماضي هنا والأمل في بداية صفحة جديدة، ولكن هل يشتركون معها في بؤس الحياة الماضية؟ أم إنها وحدها مستنزفة عاطفياً ومتهالكة من حياة لم تحمل لها سوى اسم واحد «خادمة «؟ هاهي تتشبث بالأمل في محاولة للعثورعلى ركن صغير في هذا العالم تكون فيه سيدة لمرة واحدة، وتسأل نفسها من جديد هل تهتم الكاتبة بمشاعرها وتحترمها كما كانت تبدي احتراماً وتعاطفاً مع كل السيدات التافهات؟

لم تتخيل بهيجة أن تصبح الكاتبة صديقة ليسرى فكل واحدة من طينة تختلف عن الأخرى، ما الذي جمعهما؟

أسرت يسرى لها بأنها ستكتب عنها مسلسلاً يذاع في إحدى القنوات الفضائية، حاولت تصديقها، فهي لا تعرف ما إذا كانت كاتبة مشهورة أم لا، إنما تعلم أن شقتها مؤثثة بشكل جميل وأنيق وأنها لاتذهب إلى عمل محدد مثل كل الموظفات، وتنفق على ملابسها دون أن تطلب من أصدقائها الرجال، فيما يسرى تتصل خلال ليلة واحدة بأكثر من صديق ليرسل لها بطاقات لهاتفها النقال فقط، لتمضي ساعة من الزمن تتحدث فيها إلى كمال، أكثر من ليلة قضتها معها بسبب عمل زوجها ليلاً وأحياناً بلا سبب، فقط لتؤنس وحدتها.

لم تكن من النساء اللواتي يلجأن إلى السحر والشعوذة أو يبحثن عنها في قراءة فنجان قهوة، لطالما آمنت أنها تمتلك داخلها السحر، وبإمكانها السيطرة على من تريد دون اللجوء إلى تلك الحيل.

تتذكر بهيجة كيف أقنعت زوجها بالعمل في مدرسة خاصة وكذبت عليه بشأن الدخل الشهري، لم تكن تلتزم بعملها ولا تحتاج ذاك الراتب، كان العمل حجة قوية تمنحها شجاعة الخروج بإذن رسمي دون شكوك وغيرة ومراقبة من قبله، تحاول عدم التقصير، تدور مثل نحلة في بيتها، تدفع لبهيجة من أجل مساعدتها في أعمال التنظيف، تصرفها قبل أن يأتي أحياناً، تتعامل بحنان غريب مع أولادها، ثم لا تهتم لوجودهم في كل مشاجرة مع زوجها، وبعد خروجه تبكي بحرقة وتضمهم إلى صدرها وتخاطب عواطفهم بأنها تحتمل هذا القرف من أجلهم فقط!!

بعد أن يمضي الأولاد إلى شؤونهم تمسح دموعها، ترسم ابتسامة عريضة ثم تبدأ في حفلة ترتيب مواعيد وهي تسخر من كل شيء حولها، مقدرتها العالية على الانتقال من حالة الغضب إلى حالة الفرح لم تكن تفهمها بهيجة

أبداً.

كانت تنتقل إلى حالة الشكوى من الصديقات وانتقاد تصرفاتهن معها، وهي قادرة على تحويل كل المواقف العادية إلى مواقف لها أبعاد أكبر مما يجب أن تكون.

«تتأمل كل هذه المواقف وهي هادئة، تنظر في اتجاه واحد ثم ترحل نحو هدى والكاتبة، وتفكر أنها لا تحب أن تكون كأي واحدة من هؤلاء النسوة اللواتي عملت معهن، تريد أن يكون لها شخصية مختلفة في العالم الجديد الذي ينتظرها، تريد خلق ذلك بناءً على ماتتوقعه من أشياء رائعة تصنع حياتها الجديدة «.

تشعر في هذه اللحظة وهي في بطن مركب مظلم بيقين أن ما تقوله وما تفكربه وتسجله لن يصل أبداً للكاتبة، وأنها لعبة سخيفة تمنحها شجاعة في مثل هذا الموقف لاغير.

فهل فكرت الكاتبة في ما ينتظرها من رعب أثناء هذه الرحلة فاختلقت لها تلك الحيلة؟ على العموم كانت امرأة لا تخلو من الطيبة وهن كذلك.

تتسرب إلى أنفها روائح كريهة وتسأل نفسها:

- ألا يمكن للأطفال أو الخائفين الخروج إلى سطح القارب ليقضوا حاجتهم؟

تمد عنقها، تنظر في الاتجاه المقابل فترى فجوة عميقة غائبة عنها وتجمعاً من الرؤوس لا يمكن أن تراه بشكل جيد، لكن أصواتهم تصلها دون أن تميز لغتهم، كانت الشابة المغربية، غير بعيد عنهم تبدو متكئة على جردل بلاستيكي، حزنت بهيجة عليها، كانت تشعر بقدومها قبل أن تراها، تميز رائحة عطرها الثمين وهي تدخل تلك العمارة، ترتدي ثياباً أنيقة ومكشوفة، ها هي تنام على جردل من الوقود وقد جمعت جسدها كله في اتجاه واحد ووضعت يدها اليسرى على صدرها، كطفل خائف ينام في العراء.

ولكن أليس هذا بعراء تام؟ ما الفرق أن تكون وسط البحر في مركب لا هوية له مع غرباء ينامون بعضهم فوق بعض، وقد استسلم أغلبهم للصمت، بعد أن شعروا أنهم يقتربون من اللحظة التي يأتي فيها القارب الإيطالي ليقودهم بأمان إلى شاطيء جزيرة (لامبيدوزا)، كما أخبرهم الشاب التونسي الذي كان يقود المركب في بداية الرحلة، ثم ترك القيادة لرجل آخر.

نزل إليهم طالباً منهم الهدوء والحذر، حين توقف المركب بهم التفتت تبحث عن رضا فلم تجده، ربما وسط الضجيج الذي أحدثه خبر وصول القارب الإيطالي صعد إلى أعلى، انتظرت عودته، لاتريد أن تتخلى عن مكان ملائم حجزته قريباً من الفتحة المطلة إلى أعلى، على الأقل تأتيها مع كل هبوب رائحة البحر، أفضل من الدخول إلى عمق القارب حيث تلك البراميل الصدئة والحبال والشباك العالقة عليها بقايا الأسماك ذات الرائحة العفنة.

قبل أن يعود رضا هدأ محرك المركب، اهتز قليلاً ثم سادت فترة سكون عاد

بعدها ارتفاع أصوات عالية، سمعت امرأة عراقية تقول هل وصلنا؟ فتردد صوت ضحكات، هذه أول مرة تشعر أن للفرح مكاناً في هذه الرحلة، لم يكن فرحاً بقدر ما كان ارتياحاً، تنفست بدورها محاولة القبض على أكبر كمية من الهواء القادم من أعلى.

مضى نصف ساعة، تململت أثناءه وهي تحاول أن تجد فكرة ما تشغلها وتنسيها هذا الوقت الصعب الذي لا يريد أن يمضي، فجأة سمعوا صراخاً، كان منبعثاً من الداخل قريباً من مكان الشابة الجميلة، بل هي أخذت تشتم وتصرخ، ركض نحوها ثلاثة رجال تحلقوا حولها، لم تتبين بهيجة الأمر في العتمة التي ازدادت بعد أن تم إطفاء المحرك وكل الأنوار الداخلية الشحيحة، سمعت صوت رضا ويده تحاول ملامسة كتفها، شعرت بإمان وسألته:

- ما الذي يجري؟

أجابها:

- لاشيء اطمئني.

مازالت أصواتهم تعلو وهم يتكلمون بلغة إنكليزية، فجأة وقع أحدهم أرضاً وفوقه أحد الرجال الأفارقة، فنشبت معركة صغيرة، الجميع يصرخ بأصوات مرتفعة، هبط بضعة رجال إلى أسفل وبيدهم مصابيح تعمل يدوياً، وجهت الأنوار إلى الداخل، كان عرضاً يشبه ما يحدث على خشبة المسرح، المتفرجون في الظلام والأبطال تحت الضوء.

رأت بهيجة الشابة واقفة وامرأة تحتضنها، صرخ أحد الرجال الذين هبطوا وتقدم نحوهم، تبينت أنهم لم يكونوا معهم، همس رضا:

- هؤلاء من إيطاليا سيقودون المركب.

ابتعد الرجل الذي كان ضخم الجثة، كان وجهه يتعرق وبدا أن جرحاً لحق به، ساد الهدوء، اقترب اثنان من الإيطاليين محاولين محاصرته، تحدثوا معهم، سمعت أصوات أقفال حديدية، لابد أنها قيود، شعرت بالخوف أكثر، خرجوا مقتربين منها يسوقون الرجل، بل يدفعونه نحو الأعلى، سمعت أحد الرجال يصرخ قائلا:

- ارموه في البحر لتأكله الأسماك!

علا صوت المحرك وبدأ المركب يسير بسرعة أكبر من التي انطلقوا بها، لمعت الأضواء الخافتة من جديد، نظرت نحو العمق المعتم، كان هناك اثنان من أصدقائه يجلسان مطأطئي الرأس، غير بعيد عنهما وقف رجل آخر يتحدث إليهما، لم تتبين لهجته، تشجع رضا وذهب زاحفاً نحوهم ثم اقترب من الشابة وتحدث إليها ثم عاد.

المركب مساحته لاتتجاوز الأمتار القليلة، طوله ثلاثون متراً، أما عرضه فربما يبلغ خمسة عشر متراً، ولكن ازدحام الركاب وجرادل الوقود التي كانت تتناقص منذ بدأت الرحلة سمحت لفراغ لابأس به يمكّن البعض من الحركة، عاد رضا،

حاول أن يأخذ مكانه القديم، تنهد بارتياح وهمس لبهيجة:
- الحمد لله لم ينالوا منها، كان أحدهم يحاول التحرش بالشابة لكنها صرخت وابتعدت عنه.
تملكها الرعب وسألته:
- كيف يحدث هذا بحضور الجميع هنا! أقصد في مثل هذه المواقف، يعني نحن جميعاً معرضون للهلاك في لحظة ما؟!
أجابها رضا:
- لاتخافي لم يحدث شيء.. أنا سمعت عن رحلات تم اغتصاب النساء فيها على مرأى من أزواجهن، بل هناك من حاول الاعتراض أو الدفاع وكان مصيره الغرق في البحر.
كانت تريد أن تسمع ما يجعلها تطمئن أكثر، لا أن تخاف، لكن رضا وجد أن الحقيقة والواقع أبشع من ذلك بكثير، لذا يتوجب أن يحمد الله على أقل الأضرار.

* * *

سمعت صوت الرجلين اللذين يجلسان من الجهة الثانية قريباً منها، يعودان للجدال والنقاش، في بداية الرحلة كان التذمر واضحاً جداً في نبرتهما، تحاول قدر الإمكان التقاط أحاديثهما لتسلي نفسها، لهجة أحدهما عراقية أما الثاني فهو جزائري، مع ذلك استمرت تسأل نفسها: كيف تم هذا الانسجام بينهما؟ اللهجتان تبعدان كثيراً عن بعضهما وهما يتحدثان طوال الرحلة، بعد أن حدث التحرش بالشابة علا صوتهما أكثر، وكل مافهمته في البداية كان مجرد كلمات مبعثرة، أزاحت جذعها الثقيل بقدر ماتستطيع لتقترب منهما أكثر، نجحت بالتقدم لمسافة صغيرة وسط هذه العتمة والضجيج وانشغالهما بالحوارمع بعضهما، لم يعيراها اهتماماً، وفيما كانت تحاول أن تريح قدميها باحتلال مساحة أكبر انزلقت منها زجاجة مياه الشرب، لم تكن قد شربت منها الكثير، تدحرجت باتجاه أحدهما، سارع الرجل العراقي إلى التقاطها، كان يحمل ولاعة في نهايتها بطارية صغيرة يضغط عليها فتصدر ضوءاً صغيراً، تأمل الزجاجة ثم وجه النور نحو وجهها، لم تعد تتمكن من رؤيته، أطفأ النور ومدّ يده يحمل الزجاجة، اقترب شبه زاحف على ركبتيه، هذه أول مرة، تعلم أنه نفس الرجل الذي كان في صالة الانتظار، تناولت منه الزجاجة، ثم توقفت يدها وقالت:
- «تبغي تشرب خوي تفضل؟»
رفعها نحوها وشكرها بتهذيب كبير ثم سألها:
- هل شعرت بالخوف؟!
أجابت على الفور:
- توكلت على الله، كل الرحلة خوف، إن شاء الله نوصل سالمين.
في تلك اللحظة أحست أنها تبني علاقة إنسانية جديدة مع رفاق آخرين تقاسمت معهم جزءاً كبيراً من هذه المغامرة، سؤاله منحها أنساً وحفاوة بمجرد

نطقه العبارة الصغيرة، قالت لنفسها:

- هناك من يهتم لمشاعري وخوفي وقلقي، أما مستقبلي فهذا شأني.

كانت الذاكرة المعدنية بين أصابعها تعبث بأزرارها وهي قريبة أكثر ما يمكن منهما، وقد عادا للحديث من جديد ونسيا أمرها تماماً.

تابع العراقي حديثاً كان قد بدأه مخاطباً رفيقه:

- ما الذي جعلني أغامر بروحي ودفء عائلتي، لاتسألني عن الندم، فات الأوان، الخيارات المتاحة في العراق أو غيرها جميعها تؤدي إلى الهلاك ولكن هنا يبقى لدي خيار هلاك نصفه أمل، يكفي أنني لم أمت بتفجير انتحاري في أحد أسواق بغداد، أو رصاصة طائشة ربما أصابتني من بندقية صديق أو زميل دراسة قديم.. هنا تهدج صوته قليلاً ثم تابع:

- هنا أختار طريقة للموت ربما نراها بهذا الوجه، أقصد الموت الذي بعده حياة، ليس في الآخرة لكن في هذا العالم.

قاطعه الجزائري:

- بالضبط، هذا مارميت إليه وأردت أن أوضحه، لماذا يطلقون اسم (الحراقة) على كل مهاجر في المغرب العربي، ليس كما يعتقد البعض أن جثث الغرقى المهاجرين تحرق على شواطيء أوربا.. لا أبداً، بل لأنهم يتمثلون بطارق بن زياد، أجل لاتستغرب! ذاك البطل الأسطوري في مخيلتنا أحرق وراءه السفن وهو يدخل إسبانيا فاتحاً، نحن المهاجرين نحرق خلفنا تاريخنا الشخصي، ليس لدينا ما يثبت أن اسمي الأخضر أو الأمين أو المهدي، سم ماشئت نفسك، نحرق ذاكرة وماضياً وتاريخاً، ولا تنس المؤهلات، نحرقها ولم نعد نملكها من الآن فصاعداً، ندخل أوروبا جثثاً أحياء كنا أو أمواتاً سيان، نحن مجرد جثث متحركة تتنفس، تأكل، تشرب، وتقوم بأي عمل مقابل الأمان الممنوح لنا في خيام تشبه مخيمات اللاجئين بل هي كذلك! نحن الحراقة ياسيدي إذا وصلنا الشاطيء الآخر علينا أن ننسى لغتنا أيضاً ونكفر بعاداتنا وتقاليدنا، وإلا لن نكون إلا مشروع إرهابيين جدد بالنسبة لهم.

كانت زفراتهما تصعد حارقة تكاد تصنع حرائق لا يمكن لمياه البحر أن تطفئها، هذا ماظنته وهي التي تفكر في أن ما قادها إلى تلك المهمة الانتحارية لتنقذ نفسها من الذل، لم يكن لأن خدمة البيوت تذلها بمقدار ماترى من عذابات من حولها تجعل تلك النساء يضطهدنها، لم تصدق أبداً أن يسرى تحترمها عندما تبوح بسرّ غضبها من زوجها اللاهث وراء جسد أعز صديقاتها، تشتكي لبهيجة من يأسها، من غيرته وشكوكه، حتى تستدر في أغلب الأحيان عطفها عليها، نعم يسرى تحتاج هذا التعاطف ليتسنى لها طلب خدمات إضافية منها غالباً بلا مقابل، فقط المتاح، وهو استضافتها ليلة واحدة في منزل واسع وفراش نظيف وعشاء فاخر.

عليها أن تصمت وتجامل وتدعي أنها لا تسمع ولاترى ولاتتكلم وأيضاً لاتتأثر

ببكائياتها.

لم يكن فارق العمر بين الصديقتين كبيراً، ربما لا يتجاوز الثلاث سنوات، لكن يسرى تزوجت في العشرينات، فيما سومة التي اختفت لسنين طويلة قبل أن تظهر في حياتها من جديد، كانت ماتزال تبحث عن زوج، تأخر زواجها لأنها فضلت البقاء في البيت الواسع الجميل مع والديها العجوزين، فيما شقيقها تزوج وبنى مستقبله بعيداً عنهم، يعمل في حقول النفط ويغيب ليس، عن والديه فقط بل عن زوجته وأولاده، ضحت بكل من تقدم لخطبتها من شبان رائعين كما ادعت ذلك، عند ظهورها في حياة الصديقة والزميلة القديمة كانت يتيمة الأبوين تقيم في حي (بن عاشور) وتبحث عن الخلاص والمساعدة!

تميزت سومة بجمال نادر، فهي بالإضافة إلى رشاقة جسدها تمتلك وجهاً بملامح جميلة، شعرها أسود داكن فيما بشرتها بيضاء نقية، لها عينان بلون شعرها الأسود، وتهذب حاجبين على شكل قوس يزيد مساحة جفنها، وأنفها دقيق، وتمتلك ابتسامة ساحرة منفرجة على شفتين ممتلئتين، منحها القدر كل ذلك بالإضافة إلى صوتها الرقيق وتحدثها بصوت هامس، جعلها أنثى مرغوبة حتى في صمتها الطويل، لم تكن كثيرة الكلام، من يراها يعتقد أنها فتاة صعبة المنال فيما هي غارقة في عدة تجارب عاطفية فاشلة، في البدء كانت في كل علاقة لا تدع أحدا يقترب من جسدها، محاذرة دوماً الاقتراب من شيء صغير اعتبرته الأثمن والأغلى، وفي لحظة اندفعت ومنحته مقابل لذة أعلى، حدث ذلك قبل خطبتها، وفي آخر علاقة متمادية أقامتها قبل الزواج مباشرة منساقة وراء عواطفها دون خوف من أنها في مجتمع يطالبها بالعفة، فخسرت رمز طهارتها بنظر هذا المجتمع، لم تعد عصية أبداً، بل منحت وأخذت الكثير من الملذات والمتع الجسدية.

لا تعترف بأنها لسنوات طويلة استمتعت بمزية كونها امرأة تمارس جنساً كاملا مع حبيبها، بل تقول ليسرى وهي تتوسل إليها:

- أرجوك، كانت غلطة لمرة واحدة ومنذ زمن بعيد، أريد مساعدتك في الأمر لأنني مخطوبة منذ أشهر وخطيبي يستعجل إقامة العرس! تعلمين كم سيكون هذا الأمر مكلفاً لي اجتماعياً!

في ذلك الوقت كانت بهيجة تستمع بانتباه شديد إليهما، وفيما يسرى حائرة التفكير، قدمت نصيحة لها، لأنها كما ادعت لديها خبرة من خلال معرفتها بتجارب فتيات مررن بمثل هذه المشكلة.

وكان الاقتراح أن ترافق يسرى صديقتها إلى أقرب عيادة في تونس وأن تدعي بأن سبب السفر هو معاناتها من ألم الفقرات في ظهرها.

أعجبهما اقتراح بهيجة بعد أن عرضت الإقامة مع أولاد يسرى ورعايتهم، لم يمانع زوجها أبداً، بل رحب بأداء هذه الخدمة للصديقة الجميلة التي باتت زيارتها شبه دائمة، وكانت في أغلب الأحيان تقضي الليل في البيت حتى لاتعود في

وقت متأخر إلى بيتها ويظن بها الجيران سوءاً.

* * *

لم تمض سنة على زواجها حتى عادت وكدمات زرقاء تحت عينها وفي انحاء أخرى من جسدها، هجرت زوجها وادعت أن الحياة لاتطاق معه، فهو ليس عاجزاً تماماً وإنما يشكو من ضعف كبير، ومع ذلك كان مصراً على عدم الإنجاب، حبسها في المنزل وضربها، إهانات دائمة، تبكي على كتف صديقتها وتقول:

- أريد الطلاق بأي ثمن؟!

كانت يسرى تتحدث مع السيد عبد المجيد على الهاتف، أخبرته بأن الصديقة الوحيدة لها تحتاج إلى من ينقذها من هذا الزواج البائس، وزوجها يرفض الطلاق!.

تتذكربهيجة في ذاك المساء أن كثيراً من الأحاديث دارت بين الصديقتين، كانت سومة تتنقل في أرجاء البيت براحة كبيرة، ترتدي ملابس النوم التي تخص صاحبة البيت، تدخل المطبخ، تفتح الثلاجة، تخرج بقايا الطعام، تدخلها إلى جهاز الميكرويف ثم تجلس لتلتهمه بشهية كبيرة، يومها انتبهت بهيجة إلى سعي الصديقة إلى الإمساك بهاتف يسرى أكثر من مرة على غفلة من صاحبته، وراودها الشك أنها تحاول معرفة رقم ما أو الاطلاع على الرسائل، لكنها وصلت إلى غايتها بيسر وسهولة فيما بعد، لأنها انشغلت من جديد بالثرثرة ولم تعد للاقتراب من الهاتف!

قبل ظهور سومة من جديد دخلت صديقة في حياة يسرى تدعى الشقرا، وهذا ليس اسمها الحقيقي وإنما أطلقوا عليها هذا اللقب بسبب شعرها الأصفر المصبوغ، امرأة لم تكمل السادسة والعشرين، لكنها أنجبت خمسة أطفال اثنان منهم توأمان، لم تكن من ساكني العمارة ولو ظن البعض ذلك، لأنه لاعمل لها سوى ترك أطفالها مع المربية والخادمة والخروج بسيارتها الحديثة إما إلى بيت صديقتها أو إلى المنتزه العائلي.

في بداية صداقتهما قالت يسرى عنها:

- هذه المرأة قطة مغمضة، تأتي لتشتكي من زوجها صاحب أهم محلات الملابس في البلد، وبأنه لايأتي إلى البيت، وكل شهرين يفتتح مشروعاً جديداً وعلاقة عاطفية جديدة، أما علاقتهما فهي باردة مما دعاها لتصبح شبه ساكنة في بيت صديقتها، لايعنيها وجود زوج يسرى ولا تهتم لوقت قيلولته، فهو أيضاً أصبح صديقاً حميماً لزوجها، ولطالما تحولت السهرات العائلية المشتركة إلى ساحة اقتتال زوجي إما بين الشقرا وزوجها أو بين يسرى وزوجها، جمعهما الكثير لكن دهاء يسرى وقدرتها على الإمساك بزمام أي معركة جعلها تأخذ دور الصديقة النصوح ذات الرأي السديد، في كل مشكلة تقع بين صديقتها وزوجها تحاول أن تبرز دائماً أن الصديقة هي المخطئة في حقه، وإذا عاتبتها الشقرا في خلوتهما على هذا الموقف المتخاذل، تؤكد لها يسرى أن هذا لمصلحتها

ولترطيب الأجواء.

كان غرضها واضحاً بالنسبة لبهيجة عندما أسرت لها بأن هذه الشقرا التافهة لاتستحق رجلاً يمتلك كل هذه الوسامة والأموال!

لهذا كانت تلك المحلات التي يمتلكها وتبيع أجمل الملابس تحت يدها متى شاءت، يكفيها الاتصال بزوج الشقرا فيخبرها بأن كل شيء تحت تصرفها وهذا هو ما تسعى إليه.

إلا أن ما حدث بعد ذلك هو تقليد الشقرا لنمط حياة صديقتها، ظهر الأصدقاء السريون، كما استخدمت هاتفا برقم سري خاص بهم لايكف عن الرنين لمواعيدها ولقاءاتها، ثم اتباع الحذر من وجود رسالة طائشة في هاتفها النقال.

كان الفرق كبيرا وجليا بين الزوجتين، الأولى كانت مثار شك وريبة أما الصغيرة «القطة » فهي محل ثقة دائمة.

أثار الأمر حفيظة يسرى واستفز لديها مشاعر الحسد والغيرة، وكلما وقعت القطة الشقرا في مطب أتت الصديقة المخلصة لتقدم لها النصح بصيغ التأنيب والتهذيب، في نهاية كل جدال تنهيه الشقرا بعبارة واحدة:

- «زوجي لايشك بتصرفاتي فهو يثق بي كثيراً».

***

في تلك الفترة كان البيت مزدحماً، الزوج يتذمر من وجود الشقرا وأولادها مع أولاده الأشقياء، لكنها حين تدخل بعباءتها السوداء المزخرفة وترميها على الكرسي يقف مرحباً بها، فيما تكون سومة قد احتلت غرفة نومه وفراش الزوجية طلباً لقيلولة بعد الغداء، ويسرى تركض بين المطبخ وطلبات الزوج ولا تكف عن تدليله بكل عبارات الحب والملاطفة، تعُد له مناشف نظيفة ليدخل الحمام، تنتظره خلف الباب فإذا خرج تقبله وتعطيه ثياباً نظيفة، بعد أن يذهبوا تبدأ بالشكوى والتذمر من وجودهما، وفي كل مرة تكون نقمتها منصبة على إحداهما منتظرة من زوجها المساندة، إلا أنه يرحب بوجود سومة ولا يخفي إعجابه بنهديها المنتصبين ورغبته فيها لو سنحت له الفرصة!.

كان هذا يتبدى لبهيجة مشهداً غير معقول، لا يمكن أن تفهمه ولا تدرك ما يدور في بال الزوجة التي لا تعترض على تلك المغازلة العلنية لصديقتها. وغالباً مايكون ردّ فعلها ساخراً منه قائلة:

- لن تنال صديقتي، لا أثق بك ولكنني أثق بها كثيراً، هي تكرهك لقسوتك معي، ثم إن في حياتها رجلا آخر تعشقه وتريد أن تتزوج منه!

تكررت تلك الطقوس لأكثر من عامين، وحتى قبل سفر بهيجة بيوم واحد ظل الحال كما هو، لاشيء يتغير إلا بعض التفاصيل، القصص نفسها كل يوم، حتى عندما تغضب إحداهن وتغيب لأيام تستغل الأخرى هذا الفراغ بإظهار نفسها الصديقة المخلصة ليسرى.

«ضفيرة من النفاق والمصالح والخداع تشكل صراعات خفية هذه الصداقة «.

لأن يسرى تجد من مصلحتها أن ترسل سومة إلى مكتب السيد عبد المجيد ليسلمها مبلغاً من المال سبق وأن طلبته منه لتوفير مقدار أقل من الشك الذي يلاحقها به زوجها، وتكون فرصة جيدة لتوطد الصديقة علاقتها مع الرجل الثري الذي يمكنه أن يدفع الكثير، ومقابل لاشيء، كما تدعي صديقتها، فاعتقدت أن فرصتها متاحة لتدخل حياته، لكن ملامح الصرامة والكبرياء المرتسمة على وجهها جعلته ينفرمنها ويطلب من يسرى أن لاترسل صديقتها إليه أبداً، بل توعدّ يسرى أيضاً لو أنها طلبت المزيد فلن يلبي طلبها.

لم يعد يجيب على مكالماتها، وأحست بالقسوة والرفض من قبله، لهذا ناقشت الأمر مع بهيجة التي عملت في بيته لسنوات طويلة وتعرف بعضاً من طبائعه.

إلا أن بهيجة أفادتها بكلمة واحدة:

- لاتحاولي مضايقته أكثر لأنه يردّ على ذلك بعنف أحياناً!..

***

البحر مزاجه متقلب، لا يمكن التكهن بمواعيد ثورته وأنوائه، هذه الرحلة التي من المفترض أن يقطعها المركب الذي تم تعديل محركاته وصيانتها في ليلة كاملة يحالفه الحظ ويقف القدر مع ركابه جميعاً، هذه إحدى الحالات النادرة جداً، غالباً ماتنتهي رحلات المهاجرين قبل أن تبدأ، هذا ماسمعته بهيجة من زملائها في الرحلة، الذين اقتربت منهم أكثر بعد أن أصاب الملل رضا وأخذ يصعد أكثر من مرة إلى سطح المركب، مما أتاح لها أيضاً أن تمدد أعضاء جسدها المنهك في كل رحلة صعود، فتلك المساحات الصغيرة داخله محتلة تماماً حيث لايكاد أحدهم يحلم بأن يتمدد ويسترخي أويغط في النوم لفترة قصيرة إلا إذا طوى جسده، وانحنى مستنداً على أي شيء يجده قريباً منه، كل ماكان يفصل بهيجة عن الرجلين الجزائري والعراقي هو كومة صغيرة من الحبال مرمية فوق إطار دائري، أسندت رأسها إليه أكثر من مرة خائفة من النعاس الذي غالبته أكثر الأحيان، وكاد يأخذها إلى أحلام جميلة مرة، لاتريد أن تنام، تريد أن تستقبل كل ماقد يطرأ وهي بقمة صحوها، حتى لو استنزف القلق أفكارها وأتى على كل أعصابها.

صوتهما يخفت حيناً ويعلو حيناً آخر، ثم يبدو كلام العراقي الذي يحاول أن يقترب من اللغة الفصحى ذا نغمة رتيبة إنما جهورياً أكثر، تصغي إلى الرجل العراقي الذي يقول:

- مادام الإيطاليون قد وصلوا إلى المركب فهذا يعني أن الفرج أصبح وشيكاً!

الجزائري:

- الحمد لله. لكنهم يسيطرون من الآن على الركاب، هل لاحظت ذلك!

يقهقه العراقي ويجيبه:

- اسمع.. ليس لديهم نيات حسنة! هؤلاء تجار يتاجرون بالأرواح شئنا أم أبينا،

لكنهم عصابات منظمة وكل عصابة تريد أن تسيطر على السوق بتحسين سمعتها، وبأن رحلاتها أنجح من غيرها.

يصمت قليلاً ويتابع:

- اسمع ياصديقي نحن العراقيون نهاجر من كل مكان، هناك عصابات روسية تتولى نقل المهاجرين إلى بلدان شمال أوربا في البواخر الكبيرة، هل تتصور إلى أي مدى وصلت سلطتهم؟ من مصلحتهم أن يتعاملوا بحنكة ففي كل مكان لهم جناح يساعدهم.

تسمع الجزائري يتمتم بكلمات لا تصل أذنها، ثم يرتفع صوته قائلاً:

-..... تجار، أجل مازالوا يأتون من الشمال ويستثمرون في الجنوب، منذ قرون أتى أجدادهم إلى عمق إفريقيا السوداء، كانوا ينتقون بضاعتهم، أغلبهم من الشباب اليافعين، يجبرونهم على الصعود إلى المراكب وأحياناً يلجؤون إلى خطفهم من أحضان أسرهم، كانوا يدفعون المال من أجل تلك الرحلات... انظر الآن، نحن ندفع لهم ونبيعهم أرواحنا بكل سرور، بل نتمنى أن لاتنتهي حياتنا على شواطئهم جثثاً هامدة بلاروح.

أجابه العراقي:

- هل تعلم أن أوروبا تدفع لليبيا الملايين وتسعى لعقد صفقات معها من أجل مكافحة الهجرة غير الشرعية؟

لماذا لاتدفع مساعدات من أجل مشاريع تستوعبنا وتحسن من أوضاعنا؟ لماذا لايأتون إلينا ويدفعون بجنودهم لاحتلال أراضينا فنهجرها ونطلب منهم حق اللجوء.

زفر آهة طويلة وتابع:

- يقتلوننا في أرضنا وعلى شواطئهم، قبل أكثر من مئة سنة أتت فرنسا لتقول للجزائريين: أنتم جزء من الشعب الفرنسي، والجزائر هي بقية أرض فرنسية، أخذت العمال من أفراد الشعب الجزائري ليعملوا في مصانع السيارات،فرضت لغتها وثقافتها علينا، تغلغلت ثقافتها داخل عقولنا، ثم اغلقت الأبواب في وجه الحالمين بالهجرة إليها، كما أغلقت دول عربية نفطية الأبواب في وجه من يتكلم الفرنسية لغة الشعر والثقافة، ورحبت بمن يتكلم الانكليزية لغة الاقتصاد والمال.

- ها نحن حتى هذه اللحظة مازلنا نحمل أسماءنا وهويتنا إذا ماوصلنا أحياء أو جثثاً هامدة ستكون هويتنا الجديدة مهاجرين غير شرعيين لاغير.

## هدى تبحث عن الكاتبة

هدى أيضا متعلقة بالكتابة، حلم صغير وانقضى، وهاهي تستعيده من جديد وتسأل نفسها: كيف تمكنت يسرى من إقناع الكاتبة صديقتها التي تحترمها وتحبها أيضاً بأن تكون بطلة روايتها؟ هدى تعتقد بأن في الكتابة سمواً وهي في داخلها تتمنى لوكتبت كل مايمر بها في هذه الحياة أيضاً، هذا ما قالته لي وهي تقدم الهدية:

- كنت أتسوق برفقة صفاء. اشترت كثيراً من الملابس الداخلية الغالية وملابس النوم الحريرية.

ثم امتدت يدها تفتح كيساً أنيقاً وأخذت تعرض مشترياتها، وقفت قبالتي، وضعت قميصاً بأزهار صغيرة، كان من النوع الذي يطلق عليه ((البيبي دول»، التفتت تأخذ رأيي:

- هه مارأيك؟

- جميل جداً.

تداركت بسرعة وقالت:

- بل مثير جداً.

انحنت نحو الكيس الآخر الذي قدمته لي وطلبت مني أن أطلع على الهدية، تجاوبت مع رغبتها، بل كان عليّ أن أقوم بفتح الكيس على الفور، لكنني انشغلت برنين هاتفي.

تقدمت وأخذت تفتح العلبة الأنيقة، كانت أيضاً قميصاً وردياً يبدو أن ثمنه غال وأجمل مما اختارت لنفسها، أدهشتني بهذا الكرم والإيثار الجميل، شكرتها وأعدته إلى مكانه فيما جلست إلى الكرسي المحاذي لي، واقتربت وهي تصالب يديها فوق بعضهما، ودون مقدمات سألتني:

- ستكتبين عن يسرى؟!

كنت ألتفت إليها بنصف جذعي الأمامي، لم أجب، بل كانت لغة الجسد هي الأسبق للتعبير، أظهرت بعضاً من الامتعاض والتململ وأنا أضع سبابة يدي اليسرى على فمي وكأني لا أريد التحدث، أشرت بهزة من رأسي تدل على صحة ماسمعت، كانت بانتظار إجابة شافية أكثر من ذلك، وفكرت بأن لا أنفي تماماً ولا أعطي وعداً أكيداً فقلت لها:

- هدى، منذ مدة وأنا أفكر في كتابة شيء مهم، قصة يسرى حتى الآن تبدو عادية جداً وهي لاتبوح بالكثير.

قاطعتني:

- على العموم تبقى امرأة معذبة، وهي تساهم كثيراً في خلق المتاعب لنفسها فيما أنا أتجنبها، انظري إليّ بربك.

تكلمت بصوت يحمل انفعالاً وغضباً مشيرة إلى صدرها قائلة:

- حياتي مع عادل وصفاء، كم أحتمل منهما! أحياناً أشعر بأنني خادمة فقط ولست زوجة ثانية، هل أحكي لك عن سفري من أجل الإجهاض؟

كنت وحيدة في المشفى، تعرضت للخطر واقتربت من النهاية لولا أن لطف بي الله، وعادل هنا مع صفاء، ممنوع عليّ أن أنجب منه.

صمتت قليلاً وتابعت:

- هذه قصة مثلاً! عندما عاد من السفر قبل شهر وأنا التي تعودت أن أذهب إلى المطار لاستقباله وحدي لأن صفاء تنام حتى وقت متأخر، بينما موعد وصول الطائرة الساعة الحادية عشرة، كنت منذ الفجر أستعد للقائه، بعد أن أكملت زينتي، ارتديت قميصي الأبيض الذي يحبه عادل، وقبل أن أنطلق اتصلت بي وأخبرتني أنها تريد استقبال زوجها! تخيلي...؟

كنت أستمع إليها متأثرة بما تعانيه فعلاً، أمسكت بيدها القريبة من يدي، أحسست بأن دموعها أصبحت قريبة، تناولت مناديل بالقرب منها، مسحتها بصمت وسحبت يدها وهي تعيد المناديل إلى أنفها!

سألتها:

- وماذا فعلت؟

- ذهبت إليها ورافقتني، كنت أقود بسرعة جنونية أرعبتها، الغضب داخلي يشتعل، لا يمكنك أن تتصوري كيف شعرت به مثل بركان يكاد ينفجر، عندما وصل استقبلته وقبلته فيما أمد له يدي أصافحه مثل الأصدقاء الغرباء فقط لاغير!.

استجمعت أنفاسها اللاهثة ونظرت نحوي متسائلة:

- أليست هذه قصصاً يمكن أن تكتب؟

أومأت برأسي موافقة وأجبتها:

- بلى، أقصد كثيراً، يعني هذا ألم كبير غير محتمل.

«لم أكن قد اختبرت كتابة الرواية أو القصة ولا حتى قصيدة شعر، لكنني قرأت كثيراً، أكثر مما يقرأه الكتاب أنفسهم، وأعرف تماماً أن الكاتب لايحتاج إلى مثل هذه القصص ليدونها ويصنع منها عمله الفني، هو لايكتب مايحدث تماماً ولايكتب مايقال له، بل يكتب حول مايجري، مايحيط بالأبطال، يعيد صياغتهم من الداخل، يفلسف مايجري وربما لاينتهي لأحكام مطلقة عليهم.

الكاتب يبالغ أحياناً في إظهار جانب من شخصية يعرفها في الواقع ويعيد تشكيلها ذهنياً بالشكل الذي يراه أعمق، لكنه لايقلد ولا ينقل مايراه، بل مايحدث انطباعاً داخلياً مؤثراً لديه في تلك الناحية، والتي ربما تغيب تماماً عن بال الآخرين وعن الشخصية الواقعية نفسها.

أدرك ذلك بحدس القاريء وليس الكاتب، لهذا لم أكن أرى هدى أو صفاء بطلة في قصة، البطل الحقيقي هو عادل، ذلك الزوج الذي تمكن من إخضاع امرأتين في آن واحد لجميع رغباته وشهواته، وكأنه يضعهما على تلك اللعبة التي

تسمى الميزان، كل واحدة منهما تجلس على كرسي صغير وعندما يجلس في طرف واحدة تثقل حمولتها فترتفع الأخرى محلقة خفيفة، ثم ينتقل نحو الأخرى وهكذا.

هذه لعبة عادل، أصبحت هدى وصفاء صديقتين حميمتين تماماً، لا يمكن أن تسمى علاقة ضراير فكل واحدة تشعر في يوم ما أنها الأفضل ولها أسبابها، هدى التي يدعي أنه مغرم بها يعشق جسدها، وهي التي يمنحها حرية التنقل وقيادة السيارة والقيام بخدمات خارج المنزل، وهذا يسعدها لأنها لاتحب الجلوس في البيت، تريد أن تكون المرأة المستقلة، أما صفاء المدللة فهي التي يقوم على خدمتها الجميع بمن فيهم الزوجة الثانية!

أجل، كان لدي يقين كبير بأن صفاء على علم بهذه العلاقة، التي تقوم على السريه التامة صفاء وترضى بهذا لأنه لمصلحتها.

أما كيف أجده لمصلحتها، فهذا أمر يدعو للتأمل في شخصيتها التي تحاول أن تظهرها للجميع، ابنة العائلة المعروفة والثرية، زوجة رجل أعمال ناجح وثري، امرأة مدللة وجميلة تحب البذخ في كل شيء، هذه المرأة لا يمكن أن تظهر في لحظة واحدة أنها مكسورة، وأن زوجها فضل عليها زوجه ثانية، بل حتى لو كانت امرأة بنفس المستوى الاجتماعي، لهذا لابد أن صفاء تشكر الله كثيراً على اختيار عادل لهدى وقبولها بلعب دور الزوجة السرية، والتي تعتقد تماماً بأن الجميع ينظر إليها كالعشيقة، المجتمع لايرحم ولايريد أن يصدق أن هدى زوجة عادل وهي تملك الدليل القاطع على ذلك، فكم من متصل مجهول الهوية حذرها من هدى، بل أن أحدهم ذهب به الأمر للادعاء بأن ابن هدى هو من عادل وهي متأكدة من كذب ذاك المدعي.

لطالما مثلت لها هدى المرأة التي تسعد زوجها وتقدم الخدمات للعائلة مقابل أن تفتح بيتاً، وماينفقه عليه عادل في الشهر لايعادل مصروف ثلاثة أيام من مصروفها الشخصي، إنها تحسب خساراتها قبل ربحها، لو أنها أعلنت الغضب والمعرفة بالزواج فستكون اجتماعياً الزوجة الأولى المقهورة والمغبونة، وهي لاترتضي الاعتراف بذلك.

وسوف تخسر خدمات هدى في البيت وخارجه، فإذا ماعنّ على بالها تحضير طعام تحبه، تطلبه منها بالهاتف وبكلمات لطيفة مجاملة، فتدعي أنها تجيد الطهي وتكلفها بتحضير الغذاء، وبذات الوقت تمنحها فرحة صغيرة بأنهم سيأتون إلى بيتها جميعاً لتناول الغذاء.»

وتفرح هدى مبدئياً، لكن الزوجة الأولى حاضرة لتعكير هذا الفرح كلما أصرت على دلع مصطنع، وتطلب من زوجها أن يطعمها بيده، تتصرف بجرأة ومغالاة شديدة وكأنها عروس صغيرة، مما يدعو هدى للانسحاب إلى المطبخ حزينة عاجزة ومقهورة، فلا تشعر بطعم الأكل وتعاني من مشاكل المعدة باستمرار!

عادل هو البطل الحقيقي في كل هذه القصص؛ لأنه يغار بشدة على زوجته

المدللة ويصرح بذلك علناً لهدى التي لاترى مبرراً له، يوصيها بالانتباه إلى تصرفاتها عندما تخرجان للتسوق، يحذرها من الجلوس بالمقاهي وعدم التحدث مع الرجال الذين تعرفهم من خلال عملها السابق، حتى لايعاكس أحدهم زوجته المصون الجميلة.

تفهم صفاء تلك اللعبة جيداً فتلعبها بطريقتها الخاصة عندما تتوسل إلى صديقتها بانتهاك المحرمات، تطلب منها الجلوس في المقهى ثم ترجوها بأن لاتخبر زوجها عادل بالأمر!.

إلى أن تفاجئها في جلسة حميمة ودون أي ضغط من زوجها، معترفة ومدعية البراءة وكأنها طفلة صغيرة بما فعلته مع هدى أثناء خروجهما، ويصبح عادل الزوج الذي لاتطيعه هدى ولاتصارحه ولا يمكنه منحها كامل ثقته، وفي زيارته صباح اليوم التالي يؤنبها ويعتبرها خائنة.

بتلك الطريقة يتمكن عادل من مراقبة الزوجتين بآن واحد، كل واحدة منهما تريد أن تقدم له الولاء والطاعة.

وهو بيده السلطة، المال، هذا مايهم هدى أكثر من أي شيء آخر، لاتهتم لتلك الشراكة إلابما يدخل عليها من مال فقط!

وتعترف بينها وبين نفسها أنها ليست سوى عشيقة تقدم جسدها وترضي عادل مقابل المال وورقة سرية تعترف بذلك الزواج وشهود من صديقات يمنن عليها بكتمان أمر زواجها منه، بل وابتزازهن بكل وسيلة ممكنة ولو كان مجرد أن تفتح باب بيتها على الدوام من أجل فنجان قهوة!

## من أوراق يسرى

لم تكن المرة الأولى التي أذهب فيها إلى بيت كمال بعد أن مرت سنة على تاريخ لقائنا الأول، في كل لقاء معه أحاول جاهدة أن يكون هو المبادر إلى صنع المفاجآت واللحظات الرومانسية، هذه التفاصيل التي أحبها وأعشقها وحرمت منها طيلة فترة الزواج، مازلت أفتقدها مع كمال، مايسعدني أنه يتقبل ولايرفض كما في بداية عهد العلاقة، بل أصبح مهووساً بزيارتي لأمارس رقصي فوق جسده.

وضعت في المقعد الخلفي للسيارة بعض المأكولات التي أجيد طهيها، وثبتها داخل صندوق بلاستيكي، كان إلى جانبها صندوق آخر يحتوي على مواد تنظيف، آخر مرة كنت في بيته أحسست بالقرف من الغبار السميك الذي غطى الأثاث وصنع طبقة سميكة عليه، كان يومها مستلقياً على السرير، مررت بأصبعي على الحافة التي تعلو رأسه تماما وكتبت اسمي واسمه ورسمت قلباً حولهما يخترقه سهم، ضحك وقال:

- لا أريد مسح الغبارحتى تبقى ذكرى أصابعك هنا.
- البيت يحتاج إلى حملة نظافة.

كنت أجلس قريبة منه، أخذ رأسي بيده وقربه من وجهه وهمس:

- أحبك.. تعلمين هذا الآن؟!

يومها كنت مستعدة لتلبية كل رغباته التي باتت تؤرقني، الأصح تخفيني أيضاً!

أصحو فجأة على صوت منبه سيارة خلفي، أعتذر وأنا ألوح بيدي للسائق الذي أزعجته قيادتي، أفكر بأنني لم أكن مضطرة إلى السير من طريق الشط لكن البحر إلى يساري يمنحني جرأة أكبر للمغامرة، زدت من السرعة، انتهى الطريق الساحلي وأنا ألف يميناً وأمر تحت نفق صغير يصعد نحو الأعلى في منعطف أحب المرور بمحاذاته، هذا المنعطف المختفي تحت الجسر القريب من ضريح سيدي الشعاب يلهمني الكثير، كل المنعطفات والمنحنيات في المدينة تشبه حياتي فكل واحد منها يأخذني إلى اتجاه أكثر خطورة من الذي سبقه ومع ذلك لم أشعر بالندم ولامرة واحدة، أتجاوز المنعطف لأصل «زواية الدهماني » المرتفعة قليلاً عن سطح البحر، هذا الارتفاع يجعل كل الطرق المتعامدة مع طريق الشط ذات إطلالة فريدة، فالقادم من خلالها يقود سيارته والبحر ماثل أمامه وبمواجهته، كثيراً مايراودني شعور أنني في يوم ما سأستمر في القيادة والهبوط مباشرة على سطح الماء الأزرق.

أتخطاها نحو ميدان صغير باتجاه شارع جرابة، في كل مرة أصل بداية الشارع المزدحم صباحاً بالسيارات والنساء اللواتي لا هم لهن إلا التسوق من المحلات التي تعرض أفخر أنواع المجوهرات والملابس، أحس بالخوف، أتوقع وجود صفاء

لهذا أفضل أن أصل باكراً، موعد نومها عادة في مثل هذا الوقت، هذه المرة لا يمكنني إخفاء سيارتي بعيداً بسبب الحمولة الثقيلة من أدوات التنظيف والطعام المعلب.

من بعيد أراقب الشارع جيداً، يبدو لي هادئاً ساكناً، أنطلق بسرعة باتجاه العمارة، حالما أقف وأطفيء المحرك، أنزل رأسي نحو المقود وأراقب البيوت والشرفات ثم أنسل بهدوء، أحمل الأغراض وأدخل.

كمال في عمله لكن المفتاح بعهدتي، أرسله لي مع بهيجة هذا الصباح، أدخل الشقة وأبدأ العمل فيها.

كنت أركض نحو الحمام لأنظفه ثم الصالة وغرفة الاستقبال والمطبخ، حينما دخلت غرفة النوم شعرت بالتعب والإرهاق، مضت ساعتان وأنا أعمل مثل خادمة!

استلقيت على السرير وكلمه خادمة ترن في أذني وسؤال معلق في فضاء الغرفة ينتظر الإجابة:

- ما الذي يجعلني أبدو خادمة؟! من هذا الرجل، ماذا أريد منه؟!

كمال رجل بخيل جداً لو أنني قارنته بكل من عرفتهم حتى بزوجي الذي ماعرفته إلا كريماً معي يقدم لي الهدايا دون مناسبات، ومنيرأيضاً، بالأمس فقط طلبت منه مبلغاً وذهبت لشراء هدية لكمال، اخترت له ساعة ثمينة سأقدمها بمناسبة مرور عام على أول لقاء لنا!

أسأل نفسي:

- هل فكر بتقديم هدية لي اليوم؟!

مر عام كامل لم يفكر ولامرة واحدة بتقديم وردة؟!

حتى الأحذية ذات الكعوب العالية كان ينتظر مني أن أشتريها، كنت غارقة تماماً في أسئلتي ولم أنتبه إلى دخوله، عندما اقترب من غرفة النوم سمعت حركة، نهضت بجذعي نحو الأعلى، كان قد أصبح فوقي تماماً، حاولت أن أبعده وأنا أضحك وأقول:

- لاتلمسني، رائحة جسدي المتعرق والمنهك كريهة؟!

استمر يحاول انتزاع قبلة ونسيت كل الأسئلة وربما كانت تلك اللحظة هي الإجابة التي انتظرت!.

# البحث عن اللذة

خلال أسبوعين توطدت علاقتي بيسرى، هو زمن الاقتراب، بل اقتحامها عالمي المغلق، عندما اختارت أن تكون شهرزاد التي تسكت عن الكلام المباح في ذروة الحكاية، بضعة لقاءات قصيرة جمعتنا بعد انفضاض الأسرار، لكنها كانت في بيت هدى أو في مدخل العمارة، صارت التحيات أكثر حرارة والدعوات إلى زيارتها أكثر ودية، وأخذت أطمئن لوجود بهيجة تنظف بيتي، كان موعدها هذا الصباح، وعندما دخلت لم تكن ابنتها المتبناة معها.

سألتها:

- أين سارة؟

تهربت من الإجابة وغيرت مجرى الحديث وهي تبدي اهتماماً بأن البيت يحتاج اليوم لجهد كبير، قررت أن أتركها وحدها كما تفعل هدى ويسرى ورحت أطرق باب يسرى.

استقبلتني ببهجة كبيرة، كانت شقتها تختلف تماماً عن شقتي، سألتها عن السبب فأجابت إنهم أجروا تعديلات على تصميمها.

احتفت كثيراً بزيارتي ودعتني للجلوس في غرفة الاستقبال، كانت غرفة لاتفتح كثيراً، منظمة ونظيفة تختلف عن باقي غرف البيت الذي توجد فيه صالتان واسعتان وأخرى صغيرة تقابل باب المطبخ، وضعت فيها مائدة طعام وحولها مجموعة من الكراسي، حينما دخلت كانت الفوضى تعم المكان، أولادها يتشاجرون وصوت التلفزيون المرتفع نقلني فجأة من الهدوء إلى الضجيج لهذا كانت الغرفة أفضل ما فعلته وهي المكان المخصص لاستقبال من تعتبرهم غرباء.

جلست وحدي فيما تعد لنا القهوة، تأخرت قليلاً وفجأة ساد البيت سكون وانقطع الضجيج، دخلت تحمل فنجاني القهوة مبتسمة، وتركت باب الغرفة مفتوحاً.

سألتها:

- هل خرج الأولاد؟

اتسعت ابتسامتها وأجابت:

- صرفتهم، لقد أغلقت عليك باب الغرفة لأن الشقرا كانت في المطبخ وطلبت منها أن تأخذ الأولاد لشراء بعض الحاجيات ثم تدخلهم إلى المنتزه العائلي هنا وأشارت بيدها إلى النافذة.

فهمت أنها تقصد منتزه باب البحرحيث أن النافذة تطل عليه،

تابعت:

- أخبرت الشقرا التي استغربت زيارتك بأنك أتيت تطلبين مني خدمة والأفضل أن تغادر.

هكذا ببساطة تكذب وتتحايل بدلاً عني، لم يكن لدي مانع أن تجلس معنا بعد أن علمت أنها بدأت تغار من وجودي في حياة صديقتها، وعلقت مازحة:

- هدى تطمع لأن تكون كاتبة!!.

نظرت إليها وقد رفعت شعرها وجمعته فوق رأسها فأصبحت خصلات شعرها المصبوغة أطرافها بلون أشقر، وكأنها وردة صغيرة، فيما بقيت خصلات صغيرة متناثرة منسدلة من أعلى جبينها، قلت لنفسي إنها تبدو امرأة مثيرة، نظرت نحو حذائها المنزلي، كان شبشباً أنيقاً ذا كعب مرتفع، تظهر منه أظفاراً مصبوغة ومعتناة.

حولت نظرها إلى الحذاء ثم حدقت بي وطرف ابتسامة يلوح على شفتيها، بدت مستعدة للكلام ودون سؤال قالت:

- انظري! وأشارت إلى ساقيها وهي ترفع طرف ثوبها حتى انحسر إلى أعلى ركبتيها، وتابعت:

- لوتعلمين كيف انتابه الجنون عندما التقينا في تونس وذهبت إليه هناك في شقته، كنت أكثر هزالاً بسبب العملية، وأخبرته بأنني أهذي باسمه تحت تأثير المخدر ولم يمض أكثر من شهر على تعارفنا، شعر بالخوف يومها وأخبرني أنه لن يتجرأ على الاقتراب مني لأنه دخل بيتي وتعرف إلى زوجي!

لكنني حينما وضعت ساقاً فوق أخرى هكذا، وقامت بتمثيل الدور من جديد، محاولة إبراز مفاتنها متخيلة أنني أقوم بدوره، مما جعلني أضحك بصوت مسموع، وقد أسعدها ذلك كثيراً..

فقلت لها:

- همم، وبعد وقوعه في غرام أقدامك؟

تابعت:

- نعم، يومها فاجأني بعد أن دخل إلى غرفة وأتى حاملاً بيديه فراشاً خفيفاً وضعه وسط الغرفة، بل قريباً جداً من الكرسي الذي أجلس عليه وتمدد فوقه.

ثم أشار بيده يدعوني لأقف فوق معدته تماماً.

- كيف؟ لم أفهم؟!

أدركت أنها كانت مفاجأة لي بل صدمة كبيرة، تابعت:

- لاتستغربي، طلب مني أن أبقي في قدمي الحذاء المرتفع وأقف على جسده ثم أمشي عليه!

صرخت غير مصدقة:

- لا يمكن! كيف يتوازن جسدك فوق جسده هكذا دون أن تؤذيه وتؤذي نفسك؟!

مدت يدها نحوي، أمسكت يدي وأقسمت:

- هذا ماحدث، شعرت بالخوف في البدء، بقيت محنية نصف جسدي أمسك

بطرف الكرسي، أنظر إلى وجهه وأحس أنني أسبب له الألم، حاولت الهبوط بقدم واحدة وسرعان ما أمرني بالاسقرار بل طلب مني محاولة الوقوف منتصبة تماماً بكامل قامتي!

لدقائق بقيت أنفذ رغباته تلك ثم عدت إلى الكرسي أتامل وجهه الذي أحببت، لم ينهض، أغمض عينه وبقي ساكناً، عندما اقتربت منه كنت أجلس القرفصاء، أمسك بساقي وأخذ يمرر يده جيئة وذهاباً عليها.

قال لي:

- كم أحب هاتين الساقين بالحذاء ذي الكعب الرقيق المرتفع جداً.

لاتسألي عن تلك اللحظة، أحسست أنني أطير، أحلق مثل عصفور صغير، ولانية لديه بالتوقف أبداً.

وصار هذا الإحساس يتكرر مرة تلو الأخرى. في مرات أحس وزني بثقل فراشة خفيفة، إلا أنها تمتلك روحاً تثقل وزنها رويداً رويداً وهي تدور حول مصباح النور، تدور وتدور إلى أن تصله فتحترق أطرافها وتقع لاحراك لها!

استجمعت شجاعتي وسألتها:

- أجيبيني بصراحة: كيف يمكن لامرأة عاشقة أن تتسبب بألم جسدي لحبيبها وهي ما زالت تحاول كسب قلبه؟

رفعت خصلات شعرها بطرف يدها وأجابت:

- بل هي محاولة لنيل رضاه، أريد أن أكون معه وبقربه.

سكتت قليلاً وكأنها فكرت بما يدور في بالي وقالت:

- حتى هذا اليوم لم يحدث أبداً أن وصل معي إلى علاقة كاملة، بل يرفض ذلك تماماً.

- تماماً؟ تعرين جسدك ويعبث به وتتبادلين القبلات معه!.

تكلمت معها بنبرة تحمل تأنيباً، غيرت من لهجتي بسرعة وتابعت مبتسمة:

- «لكن الحب جميل والعطاء بين المحبين أجمل؟!»

لم تهتم ولا يعنيها أن تظهر أمامي بمظهر الزوجه الخائنة، تتكلم وكأنني آلة تسجيل صماء، فهمت ذلك عندما أجابت على أسئلتي قائلة:

- هل تحفظين كل ما أحكيه لك أم أعطيك ورقة وقلماً لتسجلي؟

نهضت مسرعة وخرجت من الباب دون أن تلتفت إلى دهشتي واستغرابي، عادت تحمل مذكرة صغيرة وبضع أوراق ملونة فتحتها، كانت مكتوبة بخط رديء ومستعجل، قدمتها لي وطلبت مني قراءتها:

- اقرأي. هذه مذكراتي، أحب الكتابة منذ كنت في المرحلة الثانوية، كنت أكتب عن معاملة أمي القاسية وحنان والدي المبطن الذي منع من إظهاره والتعبير عنه!

تأملت الأوراق، حاولت قراءة بضعة سطور أثناء ثرثرتها، وجدتها إنشاء

متواضعاً، في خمسة سطور تذكر النجوم والسماء والبحر والحرية وأقفاص الطيور المفتوحة، كلام يشبه ما تكتبه المراهقات فعلاً في دفاترهن.

لم أستفق من الصدمة بعد، أحاول مرة ثانية إعادة استجوابي علها تحكي القصة بطريقة ثانية.

أسألها:

- كم مرة فعلت ذلك؟

تجيب:

- مرات عديدة وهو لا يريد منها سوى ذلك!

أصبح متعلقاً بها حد الهوس وبدأ يكاشفها بمكنوناته وهو الرجل الكتوم الحريص على أسراره.

عرفت كيف فشل مرتين في إتمام زواجه، الأولى لأن خطيبته لاتريد السفر والإقامة في ليبيا، والثانية لأنها كانت تعامل والدته بشكل سيء ولا توجد في حياته امرأة يحبها مثل والدته.

«بعد لقاء تونس وعودتهما إلى طرابلس صارت تزوره سراً في بيته وتحكي له عن مشاكلها مع زوجها، وأنها منذ أصبحت امرأة لا تعرف معنى تلك الفراديس التي تدخلها النساء كل ليلة مع أزواجهن، تلك الرعشة المفقودة في نهاية المطاف!»

سألتها:

- هل أحببت زوجك يوماً؟ أقصد عندما تكونين معه في السرير، هل تشعرين بالشغف والرغبة؟ أم تذهبين إلى السرير تلبية لرغباته فقط؟

«أخذت تتحدث عن تلك اللحظات الحميمة مثل فتاة لم تختبر جسدها بعد ولم تفض بكارتها «.

سألت نفسي كيف تفكر هذه المرأة التي تعدت علاقاتها أكثر من رجل، علاقات بالهاتف وأخرى عابرة وغيرها في بيوت الأصدقاء، وكمال، ولاتريد الاعتراف بأنها تخون زوجها، ومع ذلك لم تكتشف مواطن اللذة في جسدها، تجهل من أين تأتي الرغبة وكيف تقود الشهوة نحو سدرة المنتهى.

حيرني أمر هذا الشغف! تتكتم على مواطن من العلاقة وتريد مني أن أصدق بأن لاشيء بينهما سوى تبادل القبلات والمشي بالكعب العالي فوق السرة، وأن ماتفعله أصبح يعوضها عما فقدته من لذة حقيقية، تعترف بأنها حينما تمشي فوق جسده، ذلك الرجل الثري صاحب المنصب الرفيع الذي تحلم الفتيات الجميلات أن يقتربن منه، أصبح موطأ لقدمها، في أثناء ذلك تشعر برضا يغمرها، رضا مثل بقعة نور صغيرة تلوح في أفق الغرفة ثم تكبر وتكبر، تحتويها، تصبح داخلها، فإذا بها تسبح بعيداً عن الجاذبية الأرضية بخفة ريشة، وكلما سمعت أناته المتألمة تضغط أكثر على جسده الممدد تحت أقدامها، عندما

يصرخ بشدة ترتعش مهتزة حتى تصل تلك الرعشة نهاية أطرافها.
ثم تخرج كلها من أعلى رأسها وكأن روحها تنسحب منها في جزء من الثانية وتعود في ذاك الجزء نفسه!»
تلتفت إليّ متسائلة:
- أليست هي الجنة التي نهاجر إليها طوعاً من حياتنا اليومية كل ليلة، لندخلها وننعم منها بما نشتهي؟!
كان صوتها الهادىء المفعم بالشاعرية والرتابة يتسلل إلى داخلي، أصبحت كلماتها مثل حبل يلفني من أعلى رأسي حتى أسفل قدمي ثم يطوحني بعيداً، فأحسست بالدوار فجأة وبالغثيان، لم أعد قادرة على مقاومته، خجلت من إظهار ذلك، اعتذرت منها وصعدت بسرعة إلى شقتي، أغلقت باب الحمام وأخرجت كل ما دخل جوفي.
كانت بهيجة المسكينة قد انتهت من تنظيف الحمام لكنها عادت لتساعدني لأدخل السرير، أطفأت نور الغرفة بعد أن قدمت لي كأسا من شراب النعناع الساخن وخرجت.

# مكائد البحر

لا يمكن لمكائد البحر أن تنتهي، بعد مضي أكثر من تسع عشرة ساعة على الإبحار توقف المركب للمرة الثانية، المهاجرون في أسفله توقعوا أنهم صاروا أقرب ما يمكن من جزيرة « لامبيدوزا» بدايات الحلم ونهاية الشقاء.

ارتفعت أصوات عالية، نهض العراقي وهو يقول:

- لم نصل بعد، أتمنى أن لايكون هناك مشكلة.

في ذلك الوقت ظهر رضا، صرخ بأعلى صوته:

- هل من طبيب؟

أجابه العراقي:

- لماذا؟ ماذا يحدث؟

وقبل أن يتم جملته صعد إلى سطح المركب، بعد دقائق نزل الشاب التونسي ومعه رجل إيطالي، وطلب من الجميع أن يهدأوا تماماً لأن المركب يحتاج محركه إلى راحة لمدة ساعة أو ساعتين ثم يعود للإبحار من جديد. صرخت امرأة بلهجة عراقية متذمرة:

- تعبنا كثيراً.

قام الشاب التونسي بترجمة الكلمة للإيطالي الذي هز رأسه ساخراً وشتم بإشارة من يده ثم عاد إلى الصعود.

بعد أكثر من نصف ساعة عاد رضا برفقة العراقي وأخبربهيجة أن هناك امرأة تحتضر، وصمت!

قالت بهيجة بصوت مرتعب:

- إذا ماتت.... ماذا؟!

همس قريبا من أذنها:

- هي فعلا ماتت، والعراقي أقنع زوجها بأن لامكان لها على المركب وتم رميها في البحر.

صمت قليلاً وقال:

- الطليان كانوا سيرمونها قبل أن تلفظ أنفاسها لكن زوجها تمالك نفسه عندما شجعه العراقي!

- من أي بلد أتوا؟ أقصد جنسيتهم.

ضحك وأجابها:

- من بلاد الله الواسعة.انسي الأمر.

اقتربت بهيجة الخائفة من الرجل العراقي تسأله:

- ماذا حدث للمرأة؟ هل معها أطفال؟

- نعم لديها طفلة صغيرة.

تصورت على الفور لو أن سارة معها، وكيف كانت ستجلب لها البؤس لو أن بهيجة غرقت أو ماتت وتم رميها في البحر! هذه الخيالات قد تساعدها في اللحظات الحرجة لتكون أكثر امتناناً، ولتكون أقوى وتستمر في الاقتيات بأحلامها، لكن قواها خارت فجأة وشعرت بأنها تريد الاستسلام للنوم، اتكأت على كومة الحبال ذات الرائحة النتنة وغفت لأكثر من ساعتين، دون أن تدري أن حالة المهاجرين زملائها ازدادت سوءاً، وأن مجموعة منهم أصابهم إقياء شديد وإسهال.

صحت على جلبة قوية، عادت ببطء تحاول الجلوس وهي تفتح عينيها فترى الرجل الإيطالي يصرخ في وجه أحدهم، كان رجلاً قوي البنية يحمل صفيحة امتلأت بسوائل رائحتها كريهة، والإيطالي ينهره ويطلب منه الصعود بها إلى أعلى.

سألت العراقي عنه فأجابها:

- هذه فضلات الركاب وعليه أن يصعد بها ويرميها في البحر. ضحك، لكنه تابع مهدئاً من خوفها:

- سيتحرك المركب الآن والأفضل أن لاتكون حمولته فائضة، بعد ساعتين ندخل المياه الإقليمية، أبشري فالفرج قريب جداً.

شكرت مواساته، إلا أن رضا همس لها بأن بعض الركاب حملوا معهم زجاجات خمر وثملوا لهذا عاقبهم الرجل الإيطالي بحمل صفائح الفضلات ورميها.

تذكرت أن الثمل يمكن أن يقود المرء للبكاء أيضاً!

قبل شهر من سفرها عادت يسرى من بيت كمال تحمل معها زجاجتين من النبيذ، طلبت من بهيجة إعداد وتحضير بعض المأكولات الخفيفة، وأجبرت أولادها على الذهاب إلى أسرتهم باكراً، دخلت سومة وبيدها بعض الأطعمة الجاهزة، جلست الصديقتان تتسامران، لم تكن بهيجة قريبة منهما لأنها اختارت متابعة إحدى المسلسلات الدرامية المشوقة، إلا أنها قامت بخدمة هاتين السيدتين اللتين قررتا في غياب زوج يسرى أن تقيما سهرة مجنونة، لأول مرة ترى اثنتين من النساء في جلسة حميمة تثملان، رقصتا على إيقاعات صاخبة ثم أخذتهما نوبة ضحك مفاجأة ثم هدأتا تماماً، ماعادت تسمع صوتيهما، مشت إليهما متسللة بخطوات على رؤوس أصابعها، بدا أنهما تتكلمان بودَ، إلا أنها حينما اقتربت منهما أكثر بحجة سؤالهما عما إذا كان لهما أي طلبات، أدركت أن حديثهما كله لوم وعتاب، كانت سومة عاتبة كثيراً على صديقتها بعد أن أفشت سراً قديماً وقالت للشقرا:

- «أنها لم تكن عذراء».

وطلبت يسرى تحت تأثير الكحول أن تصفح عنها وتبادلت معها اللوم قائلة:

- لماذا أخبرت منير عن علاقتي بكمال؟!

أنكرت سومة الأمر وبررته بأن منير يراقبها وربما تكون هدى من أخبرته.

بدأ كلامهما يتراخى رويداً رويداً، وحين نهضت سومة كانت تفتح ذراعيها وهي تمشي نحو غرفة النوم.

التفتت يسرى إلى بهيجة وهي تشير بأصبعها إلى صديقتها الثملة وقالت:

- بهيجة، انظري إليها وهي تتأهب للطيران لتحط فوق سريري، أمسكي بها من فضلك.

قهقهت يسرى طويلاً ولحقت بصديقتها، كان باب الغرفة مواربا ويفصله عن الصالة نصف جدار يرتفع في نهاية عمود يصل حتى السقف، عادت بهيجة لمتابعة المسلسل الذي شارف على نهايته، سمعت أنات مكتومة صادرة عن غرفة النوم.

عادت تتسلل من جديد على أطراف أصابعها محاولة التلصص، لكنها فوجئت بصوت نحيب هادىء لم تفهمه أبداً.

لعنت الشيطان الذي وسوس لها كثيراً من الأمور الغريبة التي تجري داخل الغرفة، اهتز المركب بقوة، أفاقت بهيجة من هذيانها وشرودها بينما سمعت تصفيقاً قوياً في الناحية المعتمة من القارب.

شكرت الله على أن رحلتهم قاربت على الانتهاء، ولأول مرة تشكر الشقرا في سرها لأنها كانت دليلها إلى سمسار جيد مكنها من رحلة موفقة.

## من أوراق «يسرى»

كنت أرى زجاجات الكحول ذات الأشكال المختلفة في بيت كمال. هو لايدعوني عادة لمشاركته، ولا يسكب لي كأساً لأجرب طعمه، تمنيت حدوث ذلك، وعندما صارحته بالأمر رفض تماماً قائلاً:

- لا، لا يمكن أن أسمح لك بتناوله هنا لأنك ستقودين السيارة إلى بيتك، وأخشى أن تتسببي بفضيحة لي!

ثم استدرك:

- ولنفسك.

اقترب مني يحتضنني بشغف وهمس:

- سأجعلك تثملين دون أن تشربي كأسا واحدة، سأجعلك ترتفعين عن الأرض من فرط السعادة، امتدت يده إلى أسفل بطني يحاول مداعبتي دون أن يعريني، استسلمت ليده، تراخى جسدي بين يديه، حملني إلى الأريكة المستطيلة، ارتمى فوقي يقبلني، بدأت أشعر بخدر لذيد يجتاح جسدي..همس:

- أغمضي عينيك، أحب أن أتامل وجهك في لحظة لم يسبق لك أن مررت بها أبداً!

لأكثر من نصف ساعة ويده تعبث دون جدوى، أشعر بالإثارة والبلل، أرتعش قليلاً ثم أهدأ، نهض وهو يمسك بيدي، جلست مستندة إلى ظهر الأريكة فيما ذهب إلى غرفته ليحضر أريكته الخفيفة ويتمدد فوقها.

رفضت الانصياع لرغبته، صرت أخاف أن أؤذيه، بالأمس تخيلت أنني ثقبت أحشاءه بمسمار حذائي، ارتجفت خوفاً من هذا الخاطر.

أصر مرة أخرى، بل أخذ يتوسل لي مثل طفل صغير، أبهجني توسله أكثر من رقصي فوق جسده، وضعت كرسياً إلى يميني وآخر إلى يساري ليتسنى لي الضغط عليهما ويخف ثقل جسدي فوق جسده، لأكثر من خمس دقائق وحذائي ينغرس داخل لحم بطنه، نهضت وارتديت ثيابي، قبل أن أخرج ناولني كيساً سميكاً، قال لي:

- زوجك مسافر إلى مصراته الليلة، جربي هذه.

كانتا زجاجتين من النبيذ المعتق كما أخبرني، في الطريق إلى البيت اتصلت سومة، كان في صوتها عتاب شديد، دعوتها لجلسة مصارحة وأقنعتها بأن نجرب احتساء الخمر، مررنا بليلة غريبة لا يمكن نسيانها أبداً، لوم وعتاب وضحك وصفاء ورقص وبهجة وبكاء وعبث.

أكتب هذه الأوراق بعد أن استفقت صباحاً محاولة استعادة ماجرى ليلة الأمس منذ دخلنا إلى الغرفة وارتميت على سريري ثملة، ظننت أنها استسلمت للنوم قبلي، فجأة وسط الظلمة ارتمت يدها على صدري، أخذت

تعبث بحلمة نهدي، لم أقاومها فضمتني إلى صدرها بحنان بالغ، كنت أرتجف خوفاً وأسأل بصوت هامس:

- سومة، مالك حبيبتي هل جننتِ؟!

لكنها استمرت تعبث، عندما نزلت يدها إلى فخذي نهضت وقد طار الثمل من رأسي دفعة واحدة، صفعتها بلطف على وجهها ثم وجهت لها صفعة أقوى، نظرت إليها في ظل الضوء المتسرب من الصالة ماراً بالباب الموارب لغرفة النوم، كانت دموعها تسيل بهدوء على خدها، احتضنتها وأخذنا نبكي معاً.

ثم عدنا نستسلم إلى النوم، هذه المرة وضعت بيني وبينها وسادة إلا أنها ذهبت في نوم عميق وسمعت صوت شخيرها العالي، فكرت بأنها حينما تعبر عن كراهية شديدة لزوجي في كل مناسبة يكون ذلك بدافع الغيرة، تغار مني ومن حياتي الزوجية التي استمرت حتى لو ادعيت فشلها وبؤسها، وأن تلك الكراهية هدفها هو استفزازي أكثر من مرة لأطلب الطلاق ونصبح متساويتين.

تصرفها غير الواعي هذه الليلة أثار شكوكي، وفكرت أنها تحبني فعلاً وأنها تغار علي من زوجي، وربما كانت في داخلها منحرفة عاطفياً ولاتريد أن تصارحني، أخافني هذا التفكير، رفعت رأسي عن الوسادة، نظرت إليها ثم عدت أستسلم للنوم بعد هذا الإرهاق والسهر وأنا أفكر في طريقة أجعلها تخرج من حياتي إلى غير رجعة.

# مخطط الهدم من أجل التطوير

كنتُ في طريقي إلى حضور ندوة تقام في «قاعة الشعب»، أشعر بالسعادة عندما أقود سيارتي ويكون الطريق الساحلي ممتداً إلى يميني أويساري.

لم يكن المصيف العائلي بعيداً عن عمارتنا، أعلم أنه دخل في مخطط الإزالة والهدم بغرض تطوير مدينة طرابلس، لم تكن الساعة تجاوزت الخامسة بعد، لفت انتباهي أن البحر إلى يمين الطريق بدا جلياً واضحاً منذ أن تجاوزت سلسلة الفنادق، كنت أقود بسرعة عندما التفت فجأة ولم أجد أي أثر للمصيف.

كان الموج يمد لسانه على الرمال المحاذية للرصيف، أخذت سرعة السيارة تتباطأ دون وعي مني، وتذكرت أن كثيراً من المباني والشوارع دخلت في مخطط الهدم من أجل التطوير العمراني الجديد، والأهم أن عمارتنا قد استلم سكانها ثلاثة إنذارت حتى الآن، بالنسبة لي لم يكن الأمر مخيفاً لأن زوجي يعمل ليل نهار على صيانة الفيلا، وقبل أسبوع أخبرني بأنها ستكون جاهزة خلال أيام، شعرت بالطمأنينة وحزنت لأن بيتي الجديد يبعد عن البحر.

* * *

عدتُ في المساء بعد انتهاء المحاضرة، التقيت هدى عند مدخل العمارة، كانت تحاول إيجاد مكان ملائم لسيارتها القديمة، ملامح وجهها قلقة متوترة، دعوتها إلى بيتي فرحبت بالفكرة وصعدنا السلالم معاً، وصلنا إلى الطابق السابع لاهثات الأنفاس، دخلنا إلى بيتي، جلست على أول كرسي في الصالة، ذهبت إلى المطبخ، أخرجت علبتي عصير من الثلاجة، تناولت كأسين وضعتهما على صينية، فاجأني حزنها الواضح فسألتها:

- هدى هناك أمر يزعجك أكيد، هذا واضح، ما الأمر؟

- لاشيء، وكل شيء، الحكاية طويلة.

أخذت عصير البرتقال سكبت منه في كأسها، بينما ترشف من كأسها كنت أتأمل ملامح وجهها العادية وأسأل نفسي: «ما الذي يغري عادل بها؟»

وضعت الكأس على طاولة صغيرة إلى جانبها وقالت لي:

- تشاجرت مع صفاء، أعتقد أن علاقتنا انتهت وأتمنى أن تنتهي إلى الأبد.

ظننت أنها تقصد بكلامها عادل، لكنها تابعت:

- حدثت قصة غريبة منذ أيام، ولكن عديني بأن لايعلم بها أحد.

- غريب ياهدى، هذه أول مرة تطلبين مني المحافظة على أسرارك، فقدت ثقتك بي فجأة؟

- لا، إنما لك علاقة جيدة بيسرى، أخشى فقط استدراجها لك أثناء الحديث أو معي...

قاطعتها:

- لاتخافي بالنسبة لي ستبقى المرأة التافهة، أتعاطف مع ظروفها ولا أثق بها

أيضاً.

ارتاحت لوصفي وقالت:

- صفاء امرأة ثرثارة، تعودت انتقاد سلوك الشقرا وتدعوها الهبلة وتحكي بحضور ابنها الشاب عن تصرفاتها الطائشة.

- أعلم هذا، حتى يسرى دائمة الانتقاد، وفي الحقيقة هما وجهان لعملة واحدة.

وافقتني الرأي وتابعت:

- لكن ابن عادل يلاحق الفتيات والشقرا جميلة جداً، حاول استدارجها بعد أن اتصل بها هاتفياً وأخبرها قائلاً:

- لدي كلام هام جداً ويجب أن تعلمي مايقال عنك، وأن ماسيخبرها به يجب أن تأخذه باهتمام حتى لايصل إلى مسامع زوجها، خافت طبعاً وقبلت لقاءه، اتفقا على أن يلتقيا في مكان خال من الازدحام في طريق تاجوراء، كانت تقود سيارتها بينما يتقدمها في سيارته.

وصل إلى طريق فرعي وتوقف هناك، طلب منها أن تأتي إلى سيارته، في البداية رفضت ثم انصاعت لرغبته بعد أن هددها بفضيحة، أقفلت باب سيارتها وذهبت إليه، جلست بجانبه، طلب منها أن تعود إلى المقعد الخلفي، رضخت لأوامره، غير مكانه وجلس إلى جانبها، أمسك بكتفها وحاول تقبيلها بالقوة صرخت واحتجت وقالت له:- من أخبرك أني ساقطة؟

وكان جوابه: - والدتي هي التي أخبرتني بأنك تقيمين علاقات مع الرجال.

أقسمت له أنها لم تخن زوجها ولم تفكر بذلك، توسلت إليه أن يتركها... هددته، ازداد إصراره على نيلها، كان يحتضنها بقوة ويده تعبث بين فخذيها، تعرت ساقاها، خلال ثوان أحست بسائل دافيء يسيل عليهما، ابتعد عنها وبدأ يعتذر، يبرر ذلك بأنه معجب بها، بينما تمسح أثره عن عباءتها، استمر يحدثها ويخبرها أن كل صديقاتها يتكلمن بالسوء عن أخلاقها.

خرجت من السيارة تبكي وجاءت إلي تشتكي منه.

اتصلت مباشرة بعادل ورويت له القصة.

- أووه، لكن زوجك تربطه مصالح بزوج الشقرا؟

- نعم، لهذا خشي من الفضيحة وذهب إلى البيت وصفع ابنه على مرأى من صفاء التي احتجت وغضبت من وشايتي، لم تحاول حتى مراجعة نفسها أو لوم ابنها على تصرفاته الطائشة وانتهاك الأعراض.

- أمم، إذاً صفاء غاضبة منك أم من زوجها؟!

لم تجبني، تناولت كأس العصير وبدا أنها تفكر حتى الآن، ثم التفتت إلي قائلة:

- المشكلة أن عادل يضغط علي محاولاً إجباري على الاتصال بها، يريد أن تعود

علاقتنا طبيعية.
- غريب أمر هذه المرأة، أتذكر أنك مرة صفعت ابنتها المراهقة ولم تهتز أو تغضب منك، حتى أن من يشاهدك يعتقد أنك والدتها.
هزت رأسها موافقة وأجابت:
- نعم، ابنتها تكاد محبتها لي تعادل محبة والدتها، لا تنسي أنني العام الماضي أنقذتها من ورطة كادت أن تذهب فيها ضحية شاب حاول الإيقاع بها، لولا حكمتي في الموضوع وانصياعها لأوامري.
صمتت قليلاً وتابعت:
- وصفاء تدرك ذلك تماماً، تعلم أن ابنتها لاتخفي عني شيئاً، أصبحت بالنسبة لها الملاذ الآمن لهذا أحمل عبئاً ثانياً عنها.
نظرت إلى ساعتها ونهضت تستأذن بالخروج، توقفت قليلاً ثم قالت لي:
- تأكدي أن لاشيء سيعود لسابق عهده، لاتنسي أن قرار إزالة العمارة سينفذ قريباً، وعدني عادل بتدبير شقة صغيرة ربما تكون بعيدة عن وسط طرابلس.
- لكنها لن تنقطع عن زيارتها لك؟
- ربما، إنما منذ الآن لم أعد هدى الطيبة التي تقوم بكل هذه الخدمات مقابل فتات يرميه.
خرجت، أقفلت خلفها الباب وأنا أفكر بالمجنونة يسرى التي تعلقت بي وأصبحت لاتريد مصاحبة أحد من سكان العمارة سواي، لم أكد أشرع في تبديل ملابسي حتى رن هاتفي، ألقيت نظرة عليه كان اسم يسرى يقفز على الشاشة، تجاهلته ودخلت أكتب حول الندوة التي ذهبت إليها هذا المساء الحافل بالأحداث.

* * *

مضى أسبوع على سفر بهيجة في رحلة لايعلم إلا الله نهايتها، وعشرة أيام على مغامرة يسرى الأخيرة، التي حاولت جاهدة لتوريطي فيها، كان مجرد فتح بابي لصداقتها قبل شهرين حدثاً حسبته لنفسها انتصاراً.
وكنت متيقنة منذ البداية أن تلك الصداقة عمرها مرهون بتنفيذ قرار الهدم الذي طال أبنية كثيرة في طرابلس، أغلبها يقع بمحاذاة الطريق الساحلي على البحر، في الأيام التي مضت هدم فندق شاطئ النخيل» وفندق الشاطيء، الصيف العائلي،والأبنية المطلة على شارع جرابة حتى أغلق تماماً ولم يعد ذاك الشارع الأهم للتسوق، حتى العمارة كان موعد هدمها هذا الصباح، وكأن تلك الأماكن التي هدمت كانت مرصودة لتجري فيها أحداث هذه الرواية فقط، ثم تؤول إلى النسيان.
في آخر مرة رأيت يسرى كانت تودع هدى، تحينت فرصة وجودنا معاً وهمست لي:

- أخبرت كمال النذل أنني لن أعود إليه.

لم أصدق ما أسمعه، سألتها:

- هكذا فجأة!

- لا، ألا تذكرين ذلك الموقف المرعب وعودتي إلى البيت بمساعدة هدى والقدر الذي ساندني حتى لا يبتزني منير تصوري، لم يفكر حتى بالاتصال والاطمئنان عليّ، رجل أناني وبصراحة ماكنت أسعى له نلته تماماً، ها هو الآخر أصبح مثل الكلب يجري ورائي من أجل نزواته المنحرفة.

عادت هدى فغيرت مجرى الكلام، وادعت أنها تخبرني نكتة بذيئة.

***

وبدوري انشغلت في الانتقال إلى سكن جديد، كل واحدة منا ترتب حياتها لتبدأ صفحة جديدة في مكان جديد، الأسبوع الذي مرّ لم أتذكر بهيجة فيه، بل أعتقد أنه لم يعد أحد منا يتذكرها كأنها ماعاشت هنا ولامرت في حياة أحد منا.

كنت أحاول تجاهل مغامرتها التي انطلقت فيها على متن مركب دون أن تخبر أحداً من صديقاتها، اختارتني من بينهن، لا أعرف لماذا.

ولا أدري كيف خطر لي وأنا أدس المبلغ بيدها أن أعطيها المسجل الصغير، وأطلب منها تسجيل وقائع رحلتها المجهولة.

سكني الجديد تقصدت المرواغة بشأن عنوانه، وعدتهن بالاتصال الدائم وبأنني في أول فرصة سأدعوهن، كنت في الأيام الأخيرة أشعر بالملل، فاجأني زوجي بتقديم هدية جميلة في أول ليلة نقضيها داخل البيت، كانت تذاكر سفر.

أجل، أخيراً قرر أن أرافقه في إحدى رحلاته، لم يكن المكان يعنيني بقدر اهتمامي بفكرة السفر نفسها!

الرحلة كانت إلى الإمارات طويلة وشاقة أو هكذا اعتقدت، أصبح الدوار ينتابني باستمرار والغثيان يلاحقني طيلة فترات اليوم.

في اليوم الثاني ذهبت إلى الطبيب وكان بانتظاري مفاجأة انتظرتها طويلاً عندما قال:

- مبروك ستصبحين أماً.

***

## لامبيدوزا بداية الحلم

مضى مايقارب اثنتين وعشرين ساعة من الإبحار في مركب دعاه المهاجرون مركب الحظ السعيد. أولئك الذين سبق لهم وخاضوا هذه التجربة من قبل اثنان من المصريين وآخرعراقي.

تسمع بهيجة أنهم اقتربوا كثيراً، وخلال ساعتين سيتوقف المركب قريباً من شواطيء جزيرة « لامبيدوزا « الإيطالية. وهناك سوف يقذفون من يجيد السباحة من الرجال، فيما خصص للنساء والأطفال قوارب مطاطية ستأتي لانتشالهم.

عادت تشكر الله لأنه مضى زمن الرعب والخوف الكبير، تحملت ما لم تجرؤ حتى على التفكير به، لن تنكر فضل الشقرا عندما ساعدتها في الاتصال بسمسار مشهور اشترط عليها مبلغاً ضخماً مقابل رحلة مضمونة.

رحلات الهجرة في البحر لاشيء يضمنها إلا القدر، والضمان الذي يقصده الرجل السمسار عدم خداعهم في نوع المركب وتأمين مركب من الجهة الإيطالية ينتظرهم ويقوم بإكمال المهمة، أما أنواء البحر فتلك التي لا يمكن التكهن بها.

شجعتها الشقرا بعدما سمعت كلام الرجل وقامت بدفع أكثر من نصف المبلغ المطلوب، هذه المرأة نبيلة، هذا ماتحدث نفسها به الآن فيما صديقاتها يطلقن عليها صفات مختلفة، مرة تكون قطة مغمضة وأخرى مهبولة، بالنسبة إليها ستبقى أفضلهن بما قدمته لها من عون ومال، لهذا كان من واجبها تحذيرها منهن جميعاً باستثناء الكاتبة التي لاتعنيها من قريب أوبعيد، وهي الأخرى قدمت لها مبلغاً ليساعدها على تحمل مصاريف الرحلة.

قبل أن تغادر إلى زوارة تلقت اتصالا من الشقرا تخبرها بأنها قطعت علاقتها بيسرى إلى الأبد، ارتاحت لذلك الخبر ولم تشعر بتأنيب الضمير أوالندم.

***

شعرت بهيجة أنها احتملت العطش والجوع أكثر مما يجب خوفاً من اضطرارها لاستخدام الحمام، كان في حقيبتها علبتا (تن) وبعض الخبز الملفوف بقماش، أخرجت العلبة وحاولت فتحها فوق كومة الحبال، تتصرف بحذر شديد تعلمته من خدمتها في البيوت والشقق الفخمة، بالرغم مماتراه من قذارة في جوف المركب وتلك الروائح الكريهة التي تزداد مع مرور الوقت، ومع ذلك تتصرف بمنتهى الحرص على النظافة، كما أنها لم تعد تحتمل الجوع، تسرب زيت العلبة فتغاضت عنه، فتحت قطعة الخبز وأخرجت ملعقة بلاستيكية، وأخذت تملؤها ثم فعلت نفس الشيء بالقطعة الثانية، قسمت قطعتي الخبز إلى أربعة بيدها، قدمت لرضا واحدة ثم قدمت القطعتين لجيرانها الجدد في المركب، قال لها الجزائري:

- يا أختي نحن رجال نحتمل الجوع أكثر، شكراً لك.
- لا، أرجوك لاتكسر بخاطري.
كانت مصرة على تقاسم الطعام، اقترب منها الجزائري وهمس لها:
- لو أردت استخدام الحمام؟
سمعه (رضا) وانفجر ضاحكاً:
- عن أي حمام تتكلم؟ إنها صفائح، دعها لشأنها.
احتد صوت الجزائري ونهره قائلا:
- (وش تبغي من المرا؟) أنا أفهم هذه الأمور، وأريد أن أحميها من الأذى.
صمت (رضا) ولم يجب، عاد الجزائري ليشرح لبهيجة أنه هناك في أقصى المركب ستارة، وسيقف خلفها لو أرادت قضاء حاجتها.
خجلت من النقاش الدائر بين الرجلين حول قضاء حاجتها، ارتبكت واعتبرته أمراً محرجاً بالنسبة لها، كانت تتناسى هذا الأمر طوال الرحلة ولا تحاول مغادرة مكانها، حتى البرد كاد يجمد ساقيها لولا الغطاء السميك الذي افترشته وأصابه البلل مع نهاية الرحلة.
الكلام عن موضع قضاء حاجتها أثار مثانتها وشعرت أنها تكاد تنفجر فجأة، مستغربة إلحاحها بذات الوقت الذي تشعر فيه بالجوع والعطش، وكأن مطالب جسدها تحركت دفعة واحدة، وضعت قطعة الخبز في الحقيبة ومدت يدها للرجل الجزائري، ساعدها على النهوض، وقفت للحظة لاتتجاوز الثواني، أحست بالدوار، أمسك بيدها ومشى بها خطوات وهي تتعثر بأقدام الركاب وشباك الصيد المرمية حتى وصلت إلى الستارة. ضغطت بالإبهام والسبابة على أنفها، كانت الزاوية أكثر عتمة فقالت لنفسها:
- هذا أفضل من رؤية فضلات مجمعة داخل الصفيحة، تكفي الرائحة المنبعثة منها. للحظات شعرت أن مثانتها توقفت عن العمل وأن بولها سيبقى محتبساً فيها، أحست بألم يشبه وخز الإبر، استرخت قليلاً وهي تفكر أنها لا تريد خسارة حياتها من أجل عدم احتمال المكان، استجاب جسدها وانسرحت مثانتها رويداً رويداً، نسيت الروائح الكريهة بعد أن ارتاحت تماماً من ضغطها المؤلم، أزاحت الستارة، كان الجزائري يقف ملتفاً في الاتجاه المعاكس، أمسك بيدها من جديد ومشيا ببطء، لأن اهتزاز المركب اشتد قليلاً، وبدا أن سرعته زادت أكثر من قبل، لكن يد الرجل التي أحاطت كتفها ساعدتها للوصول لمكانها، لم تجد رضا بقيت واقفة تفكر في الصعود لأعلى لتتنفس هواء نقياً بما أن الرحلة شارفت على الوصول، نظرت نحو السلم الخشبي الضيق وحدثت نفسها:
- هذا أصعب ما في الأمر.
قواها الخائرة لم تمنحها الشجاعة، فعدلت عن قرارها لاحتمال الهواء الملوث

إلى نهاية الرحلة، جلست في مكانها مستغلة فرصة الفراغ الذي خلفه رضا.

طوال الرحلة لم تعلم بأن نزاعات جرت على سطح المركب، صوت المحرك القوي يمنع وصول كثير من الأشياء، إلا أن رضا كلما صعد إلى السطح رجع ليثرثر بقصص حدثت هناك وجدال قام بين المهاجرين. تذكرت محاولته الالتصاق بجسدها في بداية الرحلة، جعلتها تشفق عليه، هذا الشاب الذي فقد زوجته وباع كل مايملك من أجل تحقيق حلمه بالزواج من أجنبية والعمل في ايطاليا، يعتقد أن أبواب الجنة ستفتح له حال وصوله.

تعلم من كلام شقيقتها أن الحياة لن تكون بهذه البساطة وأن لأحلامها سقفاً لا يمكن أن تتجاوزه، الأهم هو الوصول.

* * *

«إن ساعة من عمر الإنسان وقت قصير قد لاينتبه لمضيه في الظروف الطبيعية والعادية. يصبح للساعة معنىً زمني مختلف تحت تأثير الخوف والخطر، معنى الانتظار والقلق يتضخم فيه كل مايحسه ولا يدركه الإنسان، وهم أكبر مما هو عليه في الواقع واحتماله أصعب من حدوثه.

يمر ذلك الزمن الحرج المليء بالمخاوف والأوهام، وعندما تعود إليه الذاكرة بعد أن يصبح في الخلف، يتم الاعتراف بما امتلكه في تلك الساعة من شجاعة نادرة لم يكن يحسب لها حساباً في تلك اللحظة.»

تلك الساعة في انتظار الوصول التي انقضت على المهاجرين في بطن المركب وسطحه أدخلتهم بر الأمان على شاطىء جزيرة (لامبيدوزا).

توقف المركب غير بعيد عنها في منطقة لايتجاوز عمق المياه فيها الأمتار القليلة، بمحاذاته وقف اثنان من الزوارق السريعة (الزودياك).

تدافع المهاجرون، بعضهم قفز مباشرة إلى المياه، كانوا شباناً أشداء راحو ا يكملون طريقهم سباحة غير عابئين ببرودة المياه، متناسين إرهاق أجسادهم، مستمدين نشاطهم من فرحة الوصول. ساعدهم مد البحر والعتمة على سهولة السباحة والاختفاء عن خفر السواحل، كل همهم قطع المسافة بأسرع مايمكن، فهذه لحظة اللاعودة دقت أخيراً.

عندما وصلت بهيجة إلى السطح كان أكثر من نصف المهاجرين قد قفزوا في الماء إما إلى القارب أو سباحة، من هناك نظرت نحو القاربين المزدحمين بالنساء والأطفال وبعض من الرجال فيما يعلو صوت الشاب التونسي:

- دعوا النساء يهبطن أولاً وإذا وجد الرجال مكاناً بينهن يمكنهم مرافقتهن.

كان الرجلان العراقي والجزائري خلفها تماماً، فيما رضا سارع إلى القفز باتجاه القارب، تصورت أن هذا يوم الحشر، لا يمكن للإنسان سوى التفكير بخلاصه.

سمعت الجزائري يرد على صديقه قائلاً:

- وهل يعقل بعد تحمل كل هذا الشقاء أن نغرق على الشاطيء؟

التفتت إليهما وسألتهما:

- ألا تجيدان السباحة؟

«الزمن ليس في صالح الارتباك وإضاعة الفرص بخجل ليس وقته، أجابها العراقي:

- بالنسبة لي لم أضع قدماً واحدة في الماء طيلة عمري، أما صاحبي فيمكنه أن يطفو على سطح المياه.

قواها الخائرة والإرهاق الذي عانت منه تبخر فجأة، كان الخيار واحداً بالنسبة لها هو أن تستغني عن مكانها للرجل العراقي داخل القارب وتساعد الجزائري على السباحة.

- هيا.

دفعت بالعراقي دون تردد ودون السماح له بمناقشة قرارها، وشدت بيد الجزائري، وقفزا إلى الماء، المد البحري كان رحمة لهما، وبهيجة التي تجيد السباحة منذ صغرها جعلها تتقدمه وهو يحاول الإمساك بأطرافها مرة وبجلابيتها مرة أخرى، سحبه التيار بعيداً عنها لكن جسده مازال فوق الماء، حرك ذراعيه ورجليه في حركات متناسقة، يضرب الماء ويعلم أن الخوف دفع بلا وعيه للدفاع عن حياته، ومع ذلك لم تدعه بهيجة يغيب عنها وسط العتمة، تعوم لمسافة قصيرة ثم تعود إليه تسحبه بيدها، مضت نصف ساعة وهما يتحركان نحو الشاطيء وأخيراً وصلا الشاطيء لاهثي الأنفاس، بقيت على الصخور الناتئة والرمال ممددة، وقبل أن تفاجئه رعدة البرد التمعت كشافات تضيء البقعة، كان الضوء القوي يصدر من مركب اقترب من الشاطيء، فهما على الفور أنه يتبع خفر السواحل بعد أن سمعا كلاماً صادراً من مكبر الصوت ينادي عليهما، خلال دقائق أحاط بهما رجال الشرطة ومسعفون طلبوا منهما الصعود إلى المركب، فاجأهم وجود أغلب الذين كانوا معهم من المهاجرين وقد تم إنقاذهم أيضاً من غرق وشيك للقوارب، الجميع كان يرتجف من البرد على الرغم من الأغطية الصوفية الرقيقة التي منحت لهم، وزعوا عليهم زجاجات مياه غازية وساقوهم بعد إبحار استمر لأكثر من ساعة توقف فيها المركب أكثر من مرة، أثناء بحثه عن المهاجرين الذين أكملوا الطريق سباحة، إلى أن وصلوا لمركز الشرطة.

***

في المركز تم استجوابهم، الرجل العراقي نصحها أن تدعي بأنها عراقية لأنهم يقبلون فوراً لجوءها الإنساني، إلا أنها صممت أن تصمت مثل الآخرين.

«أسأل نفسي بصوت عال: لماذا يصمتون؟ لماذا يخجلون من الانتماء إلى أوطانهم؟

إذا كانوا قادرين على تكرار الهجرة بعد فشلها، بالرغم من الموت، لماذا لايكررون خوض تجربة جديدة على أرض وطنهم إذا ماخذلهم مرة؟

لماذا لايستحق الوطن أن نعيد معه الكر والفر؟ هل الهروب أسهل من

المواجهة

أم إن مواجهة الموت أرحم، ومواجهة الصلف الأوربي أقل قسوة؟»

أمضوا ليلتلهم الأولى داخل معسكر بأسوار مرتفعة، كان الجميع مرهقاً لايطلب سوى النوم، وبهيجة القلقة من ترحيلها إلى ليبيا كما علمت، لم يغمض لها جفن، إلا في ساعات الفجر، واستيقظت على جلبة كبيرة ودخان يتصاعد في كل اتجاه، خرجت مهرولة، الأبواب مفتوحة وسيارات المطافئ حضرت، صراخ من كل جانب، ورجال الأسعاف يحاولون الإنقاذ، عند البوابة الواسعة لمحت أصدقاء الرحلة، أطمئن قلبها، أشار لها رضا من بعيد، ركضت دون وعي، كانوا أربعة أطياف يبتعدون عن مكان الحريق الذي امتد إلى مركز التحقيق، ابتعدوا أكثر مايمكن حتى اختفت ألسنة اللهب والدخان عن مرمى نظرهم، أداروا ظهورهم وتابعوا السير نحو مستقبل مجهول.

تمت في 27/2/2009

الساعة العاشرة والنصف ليلاً

# الإصدارات

1- في عراء المنفى – قصص- دار الآفاق – بيروت 2000.
2- الجياد تلتهم البحر – قصص- دار الأوائل دمشق – 2002.
3- شارات حمراء – نصوص – دار الأوائل دمشق – 2002.
4- الهجرة على مدار الحمل – رواية – دار الأوائل دمشق – 2004.
5- نصوص ضائعة التوقيع – قصص- مجلس الثقافة العام- ليبيا – 2006.
6- رجل بين بين – قصص – مجلس الثقافة العام تحت الطبع.
7- أرواح برسم البيع – قصص- طبع احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية- 2009.

رزان نعيم المغربي